



أسيرة بلا قيود

وفاء بوفيري رواية

أسيرة بلا قيود

رواية

وفاء بوبغي

إهداء

العقبة الوحيدة بينك وبين تحقيق حلمك هي الرغبة في المحاولة

والإيمان بإمكانية تحقيقه

جويل بروان

لكل من آمن بقدراتي وشجعني على الصبر وتقبل النقد ... أهدي محاولتي الأدبية

في اختراق عالم الرواية الساحر

01: ظلال الماضي

كانت تتسابقان كطفلتين، وتضحكان تحت قطرات المطر الخفيفة، وسط إحدى الحدائق العمومية بلندن. كان ذلك في أواخر شهر مارس، حيث الأجواء الربيعية المبهجة، والوجوه من حولهما تنبض بالحياة.

وعندما ابتعدت جاسمين عنها مسافة غير بعيدة، نادتها كارلا بلكنة بريطانية نقية:
—أرجوك يا جاسمين، أقسمي أنك ستعودين.

كانت هذه العبارة كفيلة بأن تغير جاسمين مسارها، فعادت نحو صديقتها وهي تقول:
—أعدك... سأعود، والوعد دين على صاحبه.

عندئذٍ، توقفت كارلا عن الجري، واختارت بقعة على العشب الناعم، وألقت بجسدها المنهك عليه. ودون وعي منها، انسلت دمعتان من عينيها الزرقاوين.

اقتربت جاسمين منها وجلست بجانبها، فقالت كارلا بنبرة حزينة:
—أتمنى ذلك... لكن هناك شيء ما يخيفني من هذه المغامرة. أخشى أن أفقدك.

تأملت جاسمين وجه صديقتها قليلاً، فبدأ شاحباً مائلاً إلى الصفرة. شعرت بالخوف من تلك الطاقة السلبية التي تخالجها، فاقتربت أكثر، وأمسكت بيديها الباردتين بين كفيها الدافئتين، وقالت:
—سأعود، أيتها الحمقاء... ومعى مفتاح أحلامنا. ستكون رحلة مؤقتة، وسأرجع لنحقق حلمنا، ونؤسس علامتنا التجارية في مجال العطور الراقية، ونغادر هذا العالم القبيح الذي نعيش فيه.

—يا ليت الحلم يتحقق يا جاسمين... لكنني خائفة من شيء ما، ولا أدري ما هو.

—سيكون واقعاً لا حلمًا. لن أبقى هناك... فلا ذكريات لي معهم. لقد مرت ثماني وعشرون سنة من عمري...
(ثم تغيرت نبرة صوتها وأصبحت أكثر حزناً)

—لقد كانوا قساة القلب معنا... فقط لأن أبي تمرد على عاداتهم وتقاليدهم، وفضل الارتباط بامرأة غريبة عنهم، فكانت النتيجة لعنةً ونفيًا وحرمانًا من دفء العائلة.

—أرجوك... كفى. لقد حان الوقت لتجاوز هذا الماضي. وتذكّري أنهم، رغم كل شيء، لم ينسوك، وعادوا يبحثون عنك ولو بعد حين. ليس مثلي... لم أعرف هويتي يومًا، وتنقلت بين عائلات الاحتضان، وعشت أسوأ الظروف. على الأقل، جدك استفاق ضميره، وهذا أمر إيجابي.

—أم تقولين إنه يحاول التكفير عن خطاياها؟ ربما حين شعر بدنوّ أجله أراد أن يلقي خالقه بقلب سليم! كم هو غبي... إن كان يظن أنني سأسامحه بهذه السهولة، فليذهب إلى الجحيم. ما أريده الآن هو تلك الثروة، وإعادة رسم طريقي في هذه الحياة من جديد.

شعرت كارلا بمرارة الحزن الذي يسكن صديقتها، فحاولت تغيير مجرى الحديث، وقالت:
—هناك أمر لم أخبرك به... لكن لا مفر الآن.

—ماذا هناك؟

—جون.

—ما به؟

—يسأل عن مكاننا.

ما إن نطقت باسمه، حتى عادت جاسمين بذاكرتها عامين إلى الوراء...

كان لقاءها به خلال عرض أزياء في إحدى الحفلات الخاصة بقصر فاخر في لندن. بعد انتهاء العرض، لاحظت نظرات حادة تلاحقها من بعيد. كان رجلاً أشقر، أنيقاً، ذا حضور مهيب، يدخن سيجاراً فاخراً.

ابتسم لها، فبادلته الابتسامة، وكانت تلك بداية علاقة لم تدرك خطورتها.

تعرف عليها، وقدم نفسه كرجل أعمال دولي، وأبدى إعجابه بها. لاحقاً، أوصلها إلى منزلها بسيارته الفاخرة، وأظهر لباقة جذبته إليها.

تطورت العلاقة سريعاً، حتى تعلقت به. لكن بعد أسابيع، بدأت تعاني من صداع حاد كل صباح. وعندما قصدت الطبيبة، اكتشفت الحقيقة الصادمة:
كانت في مرحلة متقدمة من الإدمان.

خرجت مصدومة، لتجده بانتظارها. أعطاهها مسحوقاً أبيض، وبمجرد أن استنشقت، اختفى الألم.

حينها فقط أدركت أنها وقعت في فخ خطير.

واجهته، فاعترف بهويته الحقيقية :جون ستيوارت، رجل يعمل مع المافيا الدولية. وتحول من شخص جذاب إلى رجل قاسٍ، أخبرها ببرود أنها كانت مجرد تجربة لمخدر جديد.

دخلت جاسمين بعدها في دوامة مظلمة، حاولت المقاومة، لكنها فشلت. خسرت مالها، كرامتها، وأصبحت رهينة له.

لكن عودة كارلا أنقذتها، إذ أجبرتها على دخول مصحة للعلاج. وبعد عام من المعاناة، نجحت في التعافي.

عاد و عيها للحاضر ...

—وماذا لو لحق بكِ إلى هناك؟

—إنه لعنة... لكن عندما أحصل على ميراثي، سأدفع له كل ما أملك ليعيد لي كل شيء.

—أي شيء؟

—لا شيء... دعينا نعود.

وصلنا إلى شقتها مساءً، وبدأت جاسمين في تجهيز حقيبتها.

—الحقبة صغيرة... هل تكفيكِ؟

—أسبوع أو أسبوعان فقط، ثم أعود.

—وأين ستقيمين؟

—المحامي سيستقبلني في مطار الدار البيضاء، وبعدها تتضح الأمور.

عانقتها كارلا قائلة:

—سأستاق إليك كثيرًا.

—وأنا أيضًا...

انفجرتا بالبكاء.

كانت تلك آخر ليلة لها في لندن... المدينة التي عاشت فيها عشرين عامًا، منذ أن فقدت والديها، وبدأت فيها حياتها من جديد.

أما الآن... فهي على وشك العودة، لا إلى الوطن فقط، بل إلى ماضٍ لم يُغلق بعد.

02 عودة الغريبة إلى الوطن

لم تشعر سارة بألم الفراق إلا عند إعلان المضيضة عن انطلاق الرحلة المتوجهة من مطار لندن نحو مدينة الدار البيضاء الكبرى بالمملكة المغربية، فسارعت جاسمين إلى عناق صديقتها، والدموع تنهمر كالشلال على خديها. فهي الرفيعة والمؤنسة لها لسنوات عدة، جمعهما منزل واحد شهد على أفراحهما وأتراحهما. كان عزاؤها في تلك اللحظات أنه مجرد فراق مؤقت من أجل حياة أفضل لهما.

استغرقت الرحلة بالطائرة ساعات، لم تشعر سارة خلالها بطول المسافة، إذ استغرقت كامل الرحلة الليلية في نوم عميق، ولم تستيق إلا على صوت المضيضة التي أعلنت نهاية الرحلة، مطالبة المسافرين بالتأكد من ربط أحزمة الأمان استعدادًا للنزول في مطار الدار البيضاء الدولي.

نظرت إلى ساعتها فوجدتها تشير إلى الثامنة صباحًا، وأحست بغرابة كبيرة، فهذه أول مرة تطأ أقدامها بلدًا عربيًا، والأغرب أنه ليس كأي بلد آخر، فهو موطن والدها الذي شاءت الأقدار أن تظل بعيدة عنه.

كان جلّ ما تعرفه عن هذا المكان مما سمعته من أصدقاء زاروه، أخبروها أنه بلد ساحر كاسمه، لا تغيب عنه الشمس، ويُلقب بمملكة الشرفاء، وأن في كل حي وزقاق منه حكايات وأساطير كثيرة. ورغم ذلك لم تفكر يومًا في زيارته، خصوصًا وأنها تعاني رهابًا من كل ما يذكرها بماضيها الكئيب.

ومن حسن حظها أن العائلة الوحيدة التي استقبلتها كانت عائلة مثقفة مكونة من زوجين؛ زوج لا ديني وزوجة مسيحية متدينة. كانت عائلة تحترم الاختلاف، فلم تُجبرها على ارتياد الكنائس، ولم تُفرض عليها أي معتقدات أو أفكار. تركوا لها حرية الاختيار، ففضلت أن تبقى على دين والديها، رغم أنها كانت تجهل الكثير من تفاصيله.

كبرت وازداد شغفها باللغات، فأتقنت العربية والإيطالية إلى جانب الإنجليزية. وكان لها أيضًا شغف بكل ما هو قيم ومثمر، ومن أحلامها زيارة أرض الفراعنة والتمتع بسحر أهراماتها.

حطت الطائرة على أرض المطار بهدوء، وكانت آخر المسافرين المغادرين. نظرت يمينًا ويسارًا باحثة عن مضيضها، وفي إحدى الزوايا لمحت لافتة مكتوبًا عليها اسمها الكامل باللغة الإنجليزية، يحملها رجل خمسيني، أسمر البشرة، بشوش الوجه، ذو لحية سوداء خفيفة ممزوجة بالشيب، نحيف الجسم ومتوسط القامة، يرتدي بدلة سوداء أنيقة.

سارت نحوه وقدمت له جواز سفرها، فابتسم وقال بلكنة إنجليزية أنيقة:
"مرحبًا بك يا أنسة سارة محمد العاجي. أعرفك بنفسي، أنا محامي عائلة العاجي. مرحبًا بك في بلدك، الجميع مشتاق إليك وينتظر قدومك بفارغ الصبر، وبصفة خاصة جدك السيد الكبير".

شعرت في تلك اللحظة بإحساس غريب، فهي أول مرة يناديها أحد باسمها الحقيقي، إذ اعتادت أن تُنادى باسم جاسمين لانجرافون، وهو الاسم الذي منحته لها العائلة البريطانية التي احتضنتها.

بإدلتها التحية بابتسامة باهتة، وهي لا تزال تحاول استيعاب ما يحدث: أهو حلم أم واقع تعيشه؟ كل ما تريده هو المال، لا البحث عن دفء عائلي. فقد جاءت من أجل الميراث، لا أكثر.

وأثناء إنصاتها لحديثه، استوقفتها كلماته الأخيرة، إذ لم تفهم شيئًا، خصوصًا وأنها كانت تعتقد أن السيد الكبير قد توفي وفق المكالمات الهاتفية السابقة، وأنها جاءت فقط لتسلم ميراثها.

وبنبرة عربية متكسرة سألت:

- لم أفهم يا سيدي... هل العجوز ما زال حيًا يُرزق؟

ابتسم بهدوء وقال:

- جميل أنك تحاولين التحدث بالعربية، لكن ما لا يعجبني أن العجوز ما زال متمسكًا بالحياة حتى يراك... وهذا من حسن حظنا يا أنستي.

أحست أنه يراوغ، فقالت بحدة:

- لكنكم أخبرتموني أنني هنا من أجل الميراث... لم أعد أفهم شيئًا، أهذا مزاح أم خداع؟

تفاجأ برد فعلها، وقال بهدوء:

- لم أخدعك يا أنسة سارة، هذا ما اتفقنا عليه في المحادثة الهاتفية. لكنني لم أكن أظنك بهذه القسوة. هيا لنصعد السيارة ونتحدث بصراحة.

ركبت السيارة من نوع مرسيدس قديمة الطراز، وجلست معه في المقعد الخلفي. وما إن انطلقت حتى تبدلت ملامح الرجل، واختفت ابتسامته، ودخل في صمت عميق.

بعد لحظات قال بنبرة صارمة:

- بما أنك جئت من أجل الثروة فقط، فمن الأفضل أن أوضح لك بعض الأمور: لك حرية القبول أو العودة.

أجابت بحزم:

- هذا ما أريده، فقط وضّح لي كل شيء.

ابتسم وقال:

- رغم طول الفراق، هناك بعض الصفات المشتركة بينك وبينه...

قاطعته بحدة:

- أرجوك، لست هنا.

تنهد وقال:

- حسنًا. الميراث ضخم جدًا، يشمل أراضي وشركات كبرى في المملكة، في مجالات التجميل والتصدير، وقد

قرر السيد الكبير توزيع ثروته وهو على قيد الحياة..

سألت بسرعة:

- ومتى يتم ذلك؟

أجاب:

- بعد تنفيذ الشروط.

- شروط؟ وما هي؟!

قال:

- الإقامة في قصر العائلة لمدة سنة، ثم الزواج من ابن شقيق السيد الكبير، مع احترام تقاليد العائلة".

صُدمت وضحكت بسخرية:

- سنة يمكن تقبلها، لكن زواج بلا حب؟ هذا جنون!

أجاب بهدوء:

- هل ترفضين الثروة إذن؟

قالت بتردد:

- أحتاج المال، لكن هذه الشروط تمس الكرامة.

أجاب:

- الأمر يعود إليك.

بعد صمت طويل، قال:

- هل نعود للمطار؟

أجابت أخيرًا:

- موافقة... لا شيء لديّ لأخسره.

توقفًا أمام قصر فخم، وقال:

- وصلنا... مرحبًا بك في إملييل.

وكانت الرحلة من مطار الدار البيضاء إلى إملييل تستغرق حوالي أربع ساعات. ورغم جمال الطريق الجبلي، بقيت سارة شاردة تفكر في القرار الذي اتخذته، قرار قد يغير حياتها إلى الأبد، إما للأفضل أو للأسوأ.

03 لقاء جاف

كان القصر شبيهاً بالقصور الأسطورية التي تُحكى في الروايات الغربية القديمة عن الشرق. يقف شامخاً بين التلال الجبلية لمنطقة إمليل، بعيداً عن صخب مدينة مراكش بحوالي سبعين كيلومتراً، وتحيط به حديقة غناء تتوسطها نافورة ضخمة أضفت عليه سحراً خاصاً.

كانت أول من استقبلها سيدة متوسطة العمر، قمحية البشرة، ممتلئة الجسم، تتجاوز الخمسين عاماً، ترافقها شابة يافعة في العشرينيات من عمرها، ترتديان زياً تقليدياً موحدًا، أنيقاً ومحترماً، يدل على أنهما تعملان لدى هذه العائلة.

ابتسمت لهما المرأة الأكبر سناً، وهي تتأمل سارة بعطف شديد، وكأنها تعلم هويتها وموعد وصولها، وبنبرة حنونة خاطبتها:

- ما شاء الله... تبارك الخلاق، تشبهين السيد الكبير كثيراً.

ابتسم المحامي ثم سألها:

- هل السيد الكبير موجود في القصر يا أختي خدوج؟

أجابت:

- نعم يا أستاذ إبراهيم، إنه موجود حالياً في غرفة المكتب برفقة حفيديه، لقد طلب مني اصطحابكما إلى قاعة الطعام، فتفضلا معي من فضلكما.

انبهرت سارة بشساعة القصر الفخم، المزين بأفخم الأثاث والتحف النادرة والتمينة، وكان مرتباً على نحو فريد يدل على ذوق صاحبه الرفيع.

وبعد دخولهما إلى قاعة الطعام، بهرت سارة بشساعتها ونقوشها الساحرة التي تزين كل أركانها، وتعلوها أربع ثريات بلورية فريدة الشكل أضفت على المكان رونقاً خاصاً.

لطالما سمعت عن سحر قصور مراكش ونواحيها من أصدقائها، لكنها لم تتوقع أن تعيش التجربة بنفسها، لتجد نفسها مسحورة بالمكان وكأنها في عالم سحري فريد.

لم تنتبه إلى نفسها وهي مأخوذة بالسحر، حتى وجدت نفسها أمام مائدة مستطيلة عريضة مليئة بالمأكولات، يحيط بها ثلاث نساء مجهولات بالنسبة لها. ثم انسحبت السيدة خدوج دون أن تقدمها إليهن.

ما إن رأيتها حتى علت وجوههن علامات الفضول، فتدخلت سيدة بشوشة الوجه، هادئة الطباع، في بداية الخمسينيات من عمرها، متوسطة القامة ونحيفة الجسد، أنيقة بحجابها، قائلة:
- مرحبًا بك يا أستاذ إبراهيم، ما هذه المفاجأة الصباحية الجميلة؟ تفضلوا اجلسوا معنا.

أشار المحامي إلى سارة قائلاً:

- هيا اجلسي يا ابنتي.

لم تسلم سارة خلال جلوسها بينهن من نظرات الفضول، لكن لم تتجرأ أيُّ منهن على الاستفسار عن هويتها، فكان الحوار بينهن ثنائياً، أو مع المحامي الذي بدا أن علاقته بالعائلة تتجاوز الإطار المهني.

حاولت إحدى النساء استدراجه بالكلام بنبرة هادئة، وهي تتابع سارة بنظرات فضولية، وقالت:
-إنها فعلاً مفاجأة يا عم إبراهيم... يبدو أنك والسيد الكبير بئران من الأسرار الغامضة، فخير إن شاء الله.

كانت المتحدثة شابة جميلة في أواسط العشرينيات، بيضاء البشرة، متوسطة القامة، ممثلة قليلاً، ترتدي لباساً تقليدياً أنيقاً ومحتشماً، وتغطي نصف شعرها بشال بنفسجي، بينما تنسدل خصلات شعرها الأسود الطويل على كتفيها.

ضحك المحامي وردّ بنبرة ودودة:

- لن يكون إلا الخير، دائماً ما ينتظرنا الخير يا سيدتي ريحانة.

لكن الإجابة لم تُسبغ فضول الحاضرات، فتدخلت امرأة أخرى تبدو في سن والدتها، ممثلة الجسم، وبشرة مائلة إلى البياض، ترتدي حجاباً حريرياً عصرياً، وقالت بنبرة متعجرفة:
- هذا ما نتمناه يا أستاذ إبراهيم، فصحة خالي لا تحتمل صدمات أكثر مما مضى.

أجاب:

- لا تخافي يا لالة أم ريحانة، هذه الصدمة ستسعدده، فليحفظه الله لنا حتى يرى شجرة أحفاده تنمو أمامه.

لم تتفوه سارة بأي كلمة، وشعرت بتوتر واضح في القاعة، واتضح لها من الحوارات أن السيد الكبير وحده يعلم بمجيئها.

بعد لحظات، دخل رجل في السبعينيات من عمره على كرسي متحرك يدفعه بنفسه، يرافقه شابان وسيمان. تأملته سارة، فبدا ودود الملامح، أشقر، رمادي العينين، شعره خفيف وأبيض.

ما إن استقر في مكانه حتى ابتسم غير مصدق، وقال:
"حفيدتي الغالية".

ثم طلب منها الجلوس بجانبه.

في تلك اللحظة، انتابتها مشاعر متناقضة؛ بين الغضب لما حدث لوالدها، والشفقة على شيخوخة هذا الرجل.

تقدمت نحوه، وقبّلت خده الأيمن فجأة أمام الجميع، فابتسم، بينما بدا الغضب على أحد الشابين.

وعندما همّت بتقبيل خده الآخر، تدخلت السيدة أم ريحانة:

- يا ابنتي، قبّلي يديه.

فقاطعها السيد الكبير قائلاً:

- دعيها تفعل ما تشاء... إنها من رائحة الغالي. الحمد لله أنني رأيتك قبل أن أغار هذه الدنيا.

كان يتحدث بحرارة عن والدها، حتى امتلأت عيناه بالدموع، بينما كانت سارة تصطنع الابتسامة وتخفي حقيقتها.

أحست سارة بالرهبة وهي تتأمل الشاب الذي وافقت على الارتباط به دون معرفته. كان طويل القامة، أسمر البشرة، وسيمًا للغاية، ذا عينين سوداويين حادتين، في أواخر الثلاثينيات.

كان ينظر إليها ببرود واضح، وكأن وجودها غير مرغوب فيه.

بعد انتهاء وجبة الصباح، رافقتها السيدة عائشة إلى غرفتها في جناح القصر العلوي. كانت غرفة واسعة فخمة، تطل على حديقة ساحرة، وتحتوي على مكتبة صغيرة ومفروشات أنيقة وثرديات فاخرة.

ورغم جمال المكان، شعرت سارة بطاقة سلبية ثقيلة.

أحست أنها دخلت لعبة لا تعرف قواعدها، وأن النظرات من حولها تحمل تهديدًا خفيًا، وأن ما ينتظرها قد يكون أخطر مما تتصور.

04 قصر لا يرحم الغرباء

لم تغفُ إلا مع بزوغ الفجر، ولولا تلك الدقات القوية على باب الغرفة لاستمرت في سباتٍ طويل. فتحت عينيها بصعوبة، لتجد نفسها ما تزال بملابس السفر. نهضت على عجل وفتحت الباب، فوجدت أمامها السيدة الطيبة خدوج بابتسامة هادئة لا تفارق ملامحها.

تأملتها سارة جيداً، فلاحظت الهالات السوداء تحت عينيها، وكأن الليل لم يمر عليها. أدركت خدوج أن الضيفة الجديدة لم تتل قسطاً من الراحة، فخاطبتها بنبرة حنونة:

— إنه وقت العشاء يا ابنتي، لم أشأ إيقاظك لكن...

قاطعته سارة وهي تتنأب:

— لقد كنت مرهقة جداً بسبب السفر... أهذه الوجبات العائلية مقدسة إلى هذا الحد يا سيدة خدوج؟

ابتسمت خدوج بلطف وأجابت:

— بل ناديني بالدادة خدوج.

ثم أضافت موضحة:

— كل شيء داخل هذا القصر يتم وفق مواعيد دقيقة. الوجبات الصباحية والمسائية طقسٌ شبه مقدس لدى عائلة العاجي. كان السيد الكبير يحب أن يرى العائلة مجتمعة حول المائدة. أما في غيابه، فيمكن تجاوز بعض القواعد.

همست سارة في داخلها *بزن لا مفر من المواجهة...*

سألته خدوج:

— هل قلت شيئاً يا بنيتي؟

لا شيء يا دادة، سأنزل بعد قليل.

حسناً. ولا تنسي، لقد اتصلت بك فتاة من بريطانيا تدعى كارلا، وطلبت منك الاتصال بها في أقرب وقت.

— شكراً لك.

أغلقت الباب خلفها، بينما تسارعت الأفكار في رأسها. لقد نسيت صديقتها تمامًا وسط صدمة المكان الجديد.

توجهت إلى المرأة، فرأت وجهًا شاحبًا وملامح مرهقة. وقفت لحظة تحدق في انعكاسها بصمت، ثم دخلت الحمام لتستعيد بعض توازنها.

بعد دقائق خرجت أكثر انتعاشًا. فتحت حقيبتها، وألقت نظرة على ملابسها؛ معظمها سراويل جينز ضيقة وفساتين قصيرة. اختارت أطول فستان لديها، لكنه رغم ذلك لم يخف الكثير من ملامحها، بينما أضفى لونه الزهري لمسة ناعمة على حضورها.

تركت شعرها الأصهب منسدلاً، ووضعت لمسات خفيفة من المكياج، ثم عطرت نفسها برائحة هادئة.

ابتسمت لنفسها في المرأة وهمست:

— يبدو أنني دخلت لعبة لا عودة منها... لكنني لن أكون ضحيتها.

في قاعة الطعام، كان الجميع حاضرًا باستثناء السيد الكبير. جلست العائلة حول مائدة عامرة بأصناف متعددة.

لفت انتباهها وجود امرأة شابة لم ترها من قبل، أنيقة الجمال، تجلس قرب صلاح، ما أوحى بعلاقة وثيقة بينهما.

جلست سارة بجوار عمته عائشة، التي رحبت بها قائلة بابتسامة خفيفة:

— ما هذا التوقيت يا سارة العاجي؟

أجابت سارة بخجل:

— أسفة يا سيدتي...

قاطعتها عائشة بلطف:

— لا تعامليني بهذه الرسمية، فأنا عمك.

أحنت سارة رأسها اعتذارًا، فهي لم تتعود بعد على هذه الأجواء العائلية. فقد نشأت في بيئة محدودة العلاقات، حتى في منزل العائلة البريطانية التي احتضنتها، كانت تناديهم بأسمائهم الأولى فقط.

في تلك اللحظة، التفت ابن عمته يوسف نحوها وقال بجرأة:
— أنتِ امرأة مثيرة للغاية يا ابنة العم.

ساد الصمت لحظة، واحمر وجه سارة، بينما توزعت الأنظار بين الحضور.

ظهرت علامات الانزعاج على وجه صلاح، فأرسل إليه نظرة حادة تحمل تحذيرًا صامتًا.

أما الضيفة الحسنة، فقد التفتت وسألت يوسف:

— هل هذه هي قريبتك المختفية منذ سنوات؟

ابتسم يوسف بخبث:

— وماذا أخبرك أيضًا يا عزيزتي؟

خففت غيثة عينيها بصمت.

تدخل صلاح بنبرة حادة:

— ما هذا الكلام الساقط؟ ألا تستطيع التمييز بين النساء؟

قاطعته عائشة بسرعة:

— يكفي يا يوسف، اعتذر وغادر فورًا.

غادر يوسف المكان، وعاد الهدوء إلى الطاولة، لكن سارة شعرت بثقل خفي يخيم على الأجواء، وكأن تحت السطح ما هو أعمق من مجرد خلاف عائلي عابر.

اكتفت الزائرة الحسنة بالصمت، متظاهرةً بالوقار والعفة أمام أفراد عائلة العاجي، بينما شعرت سارة بغصة في حلقها من ذلك التشبيه الوقح الذي صدر في حق النساء، إلا أنها أثرت الصمت حتى لا تنزلق في جدالٍ عقيم.

عاد الهدوء إلى المائدة من جديد، لكن سارة سرقت نظرة خاطفة نحو صلاح وضيافته، فلاحظت بينهما تقاربًا لافتًا، وشيئًا من الانسجام يوحي بكيمياء خاصة قد تخفي أكثر مما تُظهر. تساءلت في داخلها: هل كان وجودها هنا قد أربك هذه المعادلة؟

حاولت السيدة عائشة العاجي تجاوز الموقف، فأخفت ارتباكها بابتسامة متكلفة، ووجهت الحديث نحو العطور التي تنتجها العائلة، في محاولة لتخفيف حدة التوتر.

بعد انتهاء العشاء، انسحبت سارة إلى غرفتها، وما إن أغلقت الباب حتى قيل لها إن صديقتها تتصل بها.

أمسكت الهاتف بسرعة، وقالت بصوت متأثر:

—اشتقت إليك...

جاءها صوت كارلا فلقاً:

—ماذا يحدث معك؟ لم يمض سوى يوم واحد، هل حدث لك شيء؟

بدأت سارة تحكي لها ما جرى، فارتفع صوت كارلا عبر الهاتف غاضباً:

—هل أنت مجنونة؟ كيف وافقت على هذا الوضع؟

أجابت سارة بصوت خافت:

—لم يكن أمامي خيار آخر.

—هذا المكان لا يناسبك.

—سأتحمل سنة واحدة فقط.

ترددت كارلا قليلاً ثم قالت:

—وماذا لو علم جون بمكانك؟

—لا تقلقي... سأدفع له كل ما يريد قريباً.

—أتمنى ذلك... لكنني أصبحت أخاف عليك أكثر من أي وقت مضى.

—لا تقلقي، سأكون بخير.

وقبل أن تنتهي المكالمة، سمعت سارة طرقةً على الباب.

—يجب أن أذهب... هناك من يطرق الباب.

أغلقت الهاتف بسرعة، وتوجهت لفتح الباب، لتفاجأ بالسيد صلاح العاجي أمامها، في هذا الوقت المتأخر من الليل.

قال بصوت هادئ:

—هل يمكننا التحدث؟

ترددت لحظة، ثم سمحت له بالدخول. دخل دون اعتراض، بينما تركت الباب مفتوحًا لتجنب أي سوء فهم.

وضع يده في جيب سرواله وقال بنبرة صارمة:

—نحن عائلة محافظة، وهناك قواعد يجب احترامها.

أجابته بهدوء:

—بالطبع، أحترم خصوصية كل مكان أتواجد فيه.

قال ببرود:

—لكن ملابسك الليلة غير مناسبة، ولا تليق بسيدات عائلة العاجي.

ابتسمت بسخرية:

—وما نوع الملابس التي تريدني أن أرتديها؟

حدّق بها للحظات ثم قال ببرود:

—المطلوب منك التحلي بالفضيلة طوال فترة إقامتك هنا. وعندما ترحلين، يمكنك فعل ما تشائين.

ثم أضاف فجأة:

—موعد زواجنا بعد أسبوعين.

تجمدت مكانها:

—أنا لست مستعدة.

نظر إليها باستهزاء:

—ومن طلب منك أن تكوني مستعدة؟

—ماذا تقصد؟

قال بصراحة:

—جئت لأخبرك فقط. إن لم يعجبك الأمر، فباب المغادرة ما زال مفتوحًا.

ثم غادر دون انتظار ردها.

وقفت سارة في مكانها، تشعر أن شيئًا داخلها قد انكسر، ثم همست لنفسها:
—سأبقى... فقط من أجل ما جئت لأجله.

مرّ أسبوع سريع داخل القصر. غادر السيد الكبير مع صلاح في رحلة عمل، فاستغلت سارة الفرصة للابتعاد عن الأجواء العائلية قدر الإمكان.

في إحدى الأمسيات، جلست في الحديقة، وفجأة سمعت صوتًا مألوفًا:
—لم أكن في وعيي تلك الليلة... أنا أسف.

رفعت نظرها بصمت، فاقترب يوسف منها وقال برجاء:
—أرجوكِ سامحيني.

لمحت في ملامحه شيئًا من الانكسار، فشعرت بشفقة تجاهه، خاصة أنها عرفت معنى السقوط والإدمان من قبل.

قال بصوت منخفض:

—أنا مستعد لفعل أي شيء لتسامحيني.

سألته بهدوء:

—أي شيء؟

أجاب فورًا:

—أي شيء.

ابتسمت بخفة وقالت:

—إذن... كن دليلي في إمليل.

أوما برأسه، وقد عاد إليه بصيص من الأمل

05 شهر عسل قسري

على وقع دقات طبول الفرخ، فتحت عينيها لتجد عمّتها داخل الغرفة، ترافقها أربع سيدات ضخّات البنية يرتدين أزياء تقليدية مزركّشة الألوان. قدّمتهن إليها على أنهن المزيّنات اللواتي سيكفّلن بكامل زينتها من ملابس ومكياج، وطلبت منها الامتثال لتوجيهاتهن في كل التفاصيل، حتى تظهر بأبهى صورة في هذا اليوم الاستثنائي لأي عروس.

وأخبرتها أن الحفل سيقام في حديقة القصر الكبيرة، بحضور عدد لا بأس به من الضيوف، ثم انسحبت تاركة المزيّنات في عملهن.

بينما كنّ منهمكات في اختيار القفاطين المناسبة، دخلت سارة في شرود طويل، وقد أثقلها الحزن. كان كل شيء يحدث بسرعة، وكأنها تُساق إلى مصير لم تختره. ها هو زفافها يتم دون حب، وبطريقة لم تخطط حتى لأبسط تفاصيلها، ولن يتحقق حلمها بارتداء فستان زفاف أوروبي أو الرقص مع من تحب على أنغام موسيقى رومانسية كما كانت تتمنى.

في تلك اللحظة، فُتح الباب بقوة، فعادت إلى الواقع. دخلت المربية خدوج تحمل صينية نحاسية صغيرة عليها فنجان من لوزة دافئة. اقتربت منها بحنان وطلبت أن تشربه دفعة واحدة ليخفف من شحوبها، مذكرة إياها بأن هذا أهم يوم في حياة أي عروس، وأنه سيكون مرهقاً بطبيعته.

تناولت سارة الفنجان بصمت، ثم عادت المزيّنات إلى عملهن. ساعدتها إحداهن في ارتداء قفطان أخضر أنيق مطرز بخيوط ذهبية دقيقة، كان مغلقاً بإحكام ويخفي ملامح جسدها النحيل. ورُيّنت بمجوهرات تقليدية أضفت عليها وقاراً خاصاً.

اقتربت إحداهن الاكتفاء بمكياج خفيف يحافظ على ملامح وجهها الطبيعية. وبعد الانتهاء، دخلت العمة عائشة الغرفة.

تأملتها طويلاً قبل أن تقول بإعجاب:

- تبارك الرحمن... تبدين كالأميرات. كأن هذا القفطان صنم لك وحدك، مع أنه قطعة تراثية قديمة من عائلة العاجي.

ثم أضافت بتأثر:

- لقد ارتدته أُمي مرة واحدة فقط في ليلة عقد قرانها، وكان فأل خير علينا جميعًا.

ابتسمت سارة بهدوء وقالت:

- يشرفني ارتداؤه... يبدو أنه يحمل ذكريات جميلة.

اقتربت عائشة منها وقالت بعاطفة:

- أود أن أقبلك، لكنني أخشى أن أفسد زينتك.

ثم عانقتها رغم ذلك.

احتاجت سارة إلى ذلك العناق أكثر مما توقعت. كانت بحاجة إلى دفء يشبه الأم، ولو للحظات. فغياب والدتها جعلها تشعر بثقل الوحدة، بينما أدركت العمة عائشة ذلك بصمت واحتضنت يدها مطمئنة.

بعد وضع التاج الذهبي على رأسها وتغطية وجهها بشال خفيف، نزلت سارة عبر سلالم القصر نحو الحديقة المزينة بأبهى صورة. كانت الموسيقى الشعبية تملأ المكان، والضيوف من الطبقة الراقية يملؤون الأرواح.

ما إن ظهرت حتى تعالت التصفيقات. جلست في مكان العروس المزين بإتقان، ثم تقدم السيد الكبير يرافقه زوجها المستقبلي. انحنى وقبل جبينها متمنيًا لها السعادة، ثم فعل صلاح الأمر ذاته قبل أن يُعاد تغطية وجهها.

لاحظت دموع الفرح في عيني السيد الكبير، فشعرت بوخزة شفقة، رغم أنها كانت تدرك أن كل ما يحدث بالنسبة لها مجرد صفقة مؤقتة.

اقترب منها صلاح وهمس بصراحة:

- بعد قليل سيتم عقد القران... ابنتي، فالكاميرات ستلتقط الصور.

ردت بقلق:

- لقد تسرعنا... يجب إنهاء هذه المسرحية.

فقال بحدة منخفضة:

- جدي يعتقد أننا نحب بعضنا. أي خطأ الليلة ستكونين مسؤولة عنه.

ثم أضاف مهدداً:

- لا مجال للتراجع الآن.

شعرت بالخوف يتسلل إليها، لكن صوت السيد الكبير اقترب هامساً:

- إن كان لديك تردد، يمكننا إيقاف كل شيء.

نظرت إليه، ثم إلى صلاح، وأدركت أنها فقدت طريق العودة. فوافقت.

بعد انتهاء الحفل، وجدت نفسها وحيدة في غرفة واسعة تحمل لقب "العروس". غيرت ملابسها، ثم غلبها التعب فغفت.

استيقظت على حركة عنيفة، لتجده يرتب حقيبته ببرود:

- جهزي حقيبتك.

سألته:

- إلى أين؟

قال بسخرية:

- شهر العسل.

ردت بغضب:

- شهر العسل للعشاق فقط.

غادر قائلاً:

- سأنتظرك في السيارة.

دا لها من نبرة صوته أنه بالكاد يستسيغ حديثها، فأحست وكأنها عبء غير مرغوب فيه في حياته. لم ترغب في مجادلته أكثر؛ فكل ما كانت تريده معه هو هدنة مؤقتة، تنتهي معها هذه المرحلة بسلام.

استغلت لحظة ابتعاده لتبدل ثيابها. بحثت في خزانها التي لم تكن تضم سوى فساتين طويلة، فاختارت فستاناً زهرياً وتركت شعرها مربوطاً ببساطة. وبينما كانت تضع لمساتها الأخيرة أمام المرأة، وجدته خلفها كالشبح، يرمقها بنظرات تنم عن نفاذ صبره، قبل أن يغادر دون أن ينطق بكلمة.

حملت حقيبتها الصغيرة على عجل، ولحقت به.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحاً حين انطلقت سيارة المرسيدس السوداء التي تقلهما. كان هو يقود، بينما جلست هي إلى جانبه في المقعد الأمامي. طوال الطريق ظل صامتاً، مركزاً على القيادة، وكأنها غير موجودة. مرّ الوقت سريعاً، وما إن استوعبت ما حدث خلال اليومين الماضيين، حتى أدركت أنها أفضحت في لعبة أخطر مما تخيلت.

استفزها صمته، فحاولت قراءة ما يدور في ذهنه. نظرت إليه، فلاحظت توتراً خفيفاً على ملامحه. أسندت رأسها إلى المقعد، ووجهت نظرها نحو النافذة، شاردة بين صورة الرجل الذي كانت تحلم به، وهذا الغريب الذي فرضه القدر عليها.

فجأة، رن هاتفه، فقطع شرودها. أجاب بصوت هادئ:
—بعد نصف ساعة سأكون هناك.

لم تعرف هوية المتصل ولا مضمون الحديث، لكنها أدركت أن وجهتهما اقتربت.

بعد وقت قصير، وصلت السيارة إلى قرية جبلية، طريقها متعرج، وتفوح في أجوائها رائحة الصنوبر والورود. توقفت أمام كوخ صغير، فنزل دون أن يتكلم، وتبعته.

اتجه إلى صندوق السيارة، أخرج حقيبتها، وقال ساخراً:
—أهلاً بك في منزلك.

تأملت الكوخ بدهشة، ثم صاحت:

—يا إلهي! هل سنقضي شهر العسل هنا؟

لم يلتفت إلى صدمتها، وقال بهدوء:

—هذا منزلي، أما القصر فهو منزل السيد الكبير. هيا.

سألته:

—وماذا عن حقييتي؟

ضحك بخفة، وأجاب ببرود:

—لا تنتظري مني أن أحملها لك.

كتمت غضبها، ولحقت به إلى الداخل. كان الكوخ بسيطاً: جدران إسمنتية، سقف من خشب الصنوبر، وثرثريا كريستالية صغيرة تتوسط السقف. يضم غرفتين، ومطبخاً، وغرفة معيشة بأثاث خشبي متواضع لكنه أنيق ومنظم.

قبل أن تسأله عن مدة الإقامة، رن هاتفه مجدداً، فخرج مسرعاً تاركاً إياها وحدها.

استغلّت الفرصة لتتجول في المكان. لفتها المطبخ وتجهيزاته، وأعجبتها بساطة الغرف وترتيبها.

حلّ الليل ولم يعد. شعرت بالجوع، فدخلت المطبخ، ووجدت الثلاجة ممتلئة بالطعام. أكلت بصمت، ثم تمددت على الأريكة وغفت.

عندما استيقظت، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، فتأكدت أنه لن يعود.

اختارت إحدى الغرف، وألقت بنفسها على السرير. لكن صوت النافذة التي اصطدمت بها الرياح أفزعها، فأسرعت لإغلاقها، ثم توجهت إلى الباب.

وما إن فتحتة، حتى وجدته أمامها كالشبح. تراجعته مذعورة.

ابتسم ساخرًا:

—لم أظنك ستخافين هكذا... أظن أنك معتادة على سهرات لندن.

ردت بحدة:

—إلى ماذا تلمح؟ ولماذا جننت بي إلى هذا المكان المعزول؟

قال ببرود:

—وهل تُترك العروس في أول أيام زواجها؟ ماذا سيقول الناس؟

صرخت:

—لا يهمني كلام الناس! أعدني إلى القصر فوراً... هذا مجرد صفقة!

أجاب بهدوء مستفز:

—إذاً حتى الزواج صار صفقة بالنسبة لك؟ سنبقى هنا حتى أقرر أنا المغادرة.

قالت متحدية:

—هذا الزواج لا يعني لي شيئاً... لدي حياة أخرى مع الرجل الذي أحب.

في لحظة، تبدلت ملامحه، وانقضَّ عليها بعنف:

—إذاً لنجعل هذا الزواج حقيقياً!

قاومته بشدة وهي تتوسل، لكنه تراجع فجأة، شامئاً، ثم غادر الغرفة غاضباً، تاركاً إياها منهارة.

ارتجف جسدها من الخوف، وانخرطت في البكاء أمام المرأة. لم تتخيل أن تكون أول ليلة لها بهذا الشكل.

في اليوم التالي، خرجت مترددة من غرفتها، لتجد زجاجاً مكسوراً وقطناً ملطخاً بالدم، ومجلات ممزقة. التقطت إحداها، فصدمت بصورها بملابس جريئة.

سمعت صوته خلفها:

—اجمعي فضائك، أيتها العاهرة.

التفتت إليه، فوجدته متعباً، يضع ضمادة على إصبعه. ردت ببرود:

—بعد ما فعلته أمس، لا أستغرب هذا الكلام.

صرخ:

—كاد خطأ أمس أن يدمرني... الحمد لله أنني لم أتورط مع عاهرة مثلك!

قالت بصدمة:

—عاهرة؟!!

أجاب:

–نعم... وصورك دليل.

ثم غادر غاضبًا، تاركًا إياها منهارة تهمس:

–أكرهك... أكرهك.

06 ما بين العطر والورود

انتظرت طويلاً في الكوخ قدومه، علماً تنهي معه فصول هذه المسرحية الكئيبة التي وجدت نفسها جزءاً منها دون رغبة. لكن الرجل لم يعد. مرّت أيام، ثم أخرى، حتى بدأت تدرك أن لا شيء يستحق منها التضحية بسعادتها، وأن رغبتها الوحيدة باتت الهروب من هذا الجحيم في أقرب فرصة.

فتّشت بين ثيابه عن أي خيط يقودها إلى النجاة، وحاولت التقرب من نساء المنطقة، لكن محاولاتها باءت بالفشل؛ فلا دليل يقودها إليه، والجميع يتجنبها كأنها غريبة، حتى صارت في أعينهم كـ"العروس المنبوذة."

عادت مجدداً إلى خزانته، وبينما كانت تحرك أحد معاطفه الجلدية، سقطت صورة صغيرة عند قدميها. انحنت والتقطتها، لتتفاجأ بصورة امرأة شابة، وقد كتبت على خلفيتها عبارة بأحمر شفاف *إلى الأبد*. تأملت الملامح جيداً؛ بدت لها مألوفاً على نحو غامض، وكأنها رأتها من قبل، لكن ذاكرتها خانتها.

كانت تعلم أنه رجل غامض، لكنها لم تتوقع يوماً أنه رجل عاشق.

في تلك اللحظة، دوى ثلاث طرققات خفيفة على باب الكوخ. ترددت في البداية، لكن الطارق لم يغادر، وكأنه يعلم أن المكان ليس خالياً. ثم جاءها صوت أنثوي من الخارج:

—سيدة العاجي، هل أنتِ هنا؟ أنا فاطمة، المساعدة المنزلية للسيد العاجي.

كان الصوت كنداء نجاة. أسرعت بفتح الباب دون تردد.

وقفت أمامها امرأة قروية في منتصف الثلاثينيات، نحيفة، بيضاء البشرة، بملامح هادئة وعينين لوزيتين، ترتدي لباساً بسيطاً وحجاباً تقليدياً يغطيها بالكامل.

رحبت بها سارة، قبل أن تخبرها فاطمة بأن السيد العاجي أرسلها لمساعدتها في كل ما تحتاجه.

سألتها مباشرة:

—أين زوجي الآن؟

—إنه في ضيعة الورود.

—وماذا يفعل هناك؟

—موسم قطاف الورد، يا سيدتي.

ترددت لحظة، ثم قالت:

—هذه أول مرة أزور فيها هذا المكان... لقد عشت حياتي كلها في لندن.

رفعت فاطمة حاجبها بدهشة:

—لندن؟ ألسنت السيدة غيثة؟

ارتبكت سارة سريعاً:

—ماذا؟ لا... أنا حفيدة السيد العاجي. ربما اختلط عليك الأمر.

ازدادت فاطمة ارتباكاً، ثم صحت بسرعة:

—عذراً يا سيدتي، يبدو أنني أخطأت في الاسم... سأذهب لتحضير الغرف، وأرجو أن توافيني باحتياجاتك لاحقاً.

غادرت بسرعة، وكأنها تخشى خطأً أكبر.

راقبتها سارة في صمت، وقد بدأت تشعر أن هذه المرأة تعرف أكثر مما تقول، وأن هذا القصر يخفي أسراراً ثقيلة.

في الأيام التالية، ظلت فاطمة تزورها بين الحين والآخر، تؤدي أعمال المنزل بصمت، وتتجنب أي حديث مباشر عن العائلة أو الزوج.

مرّ شهر كامل دون عودته. وخلالها، بدأت سارة تشعر بأنها محاصرة في هذا المكان، وكأنها سُجنت دون قضبان. فكبرت داخلها رغبة التمرد، حتى تحولت إلى قرار: الهروب.

وفي صباح يوم دافئ، ارتدت فستاناً أنيقاً، ووضعت وشاحاً خفيفاً على شعرها، ثم غادرت الكوخ متجهة نحو ضيعة الورد.

كانت الطريق وعرة، تتخللها منحدرات ومنعرجات، لكنها واصلت السير حتى وصلت. هناك، امتدت أمامها ضيعة شاسعة، محاطة بسور حديدي مرتفع، وبوابة مفتوحة بلا حراسة.

دخلت المكان بدهشة، بين حقول الورد والنباتات العطرية، حيث الألوان والروائح تحيط بها من كل جانب، كأنها دخلت عالمًا آخر.

لكن فجأة، ظهر عدد من الرجال في الأفق. ترددت في الاقتراب، إلا أن يداً قوية أمسكت بها فجأة وجذبتها بعنف. أدخلت إلى مكتب قريب، ثم أغلقت الأبواب خلفها. التفتت بسرعة، لتجده أمامها، وقد أزال لثامه، ووجهه متجهم بالغضب.

—ماذا تفعلين هنا؟ هل جئت لتزيري الفوضى؟

ردت بتحدٍ، رغم ارتجافها:

—أنا لست فوضى في حياة أحد. وإذا كنت غاضبًا لأنني أفسدت خططك، فكن شجاعًا وقل الحقيقة.

اقترب منها بعصبية:

—أي حقيقة؟

—أنك تزوجتني كغطاء، لا أكثر!

في لحظة، صفعها بقوة جعلتها تتراجع مذهولة. لكنها لم تسكت، بل صرخت وهي تحاول مقاومته.

—أريد الطلاق! أريد الخروج من هذا الجحيم!

أمسك معصمها بعنف:

—تعتقدين أن الأمر بهذه السهولة؟

—أريد حريتي فقط!

تصلب صوته:

—الحرية بين يديك... ارحلي إذن.

ثم تركها وغادر.

وقفت مكانها ترتجف، ثم همست لنفسها:

—سأرحل... لكنني لن أنهزم.

ما إن أطلق سراحها، حتى أسرعت متسللة من باب مكتبه الواسع. كانت دقات قلبها أسرع من خطواتها المرتبكة. وصلت إلى الكوخ منهكةً ومدمرةً نفسيًا، فدخلت غرفتها وألقت بنفسها على السرير، ثم انفجرت بالبكاء، تبيكي حظها العاثر الذي أوقعها مع وحشٍ بشري لا يرحم.

لم يترك لها خيارات كثيرة؛ فإما الانصياع لقوانينه، أو الرحيل خالية الوفاض. كانت تصرفاته كلها تؤكد أنها وقعت في مواجهة شخصية لا يمكن التنبؤ بها، وكأن كل ما فيه قابل للانفجار في أي لحظة.

مرّ يومان على حادثة ضيعة الورود، ظلت خلالهما وحيدة بين أركان الكوخ الصغير وحقول الورود المحيطة به. وفي محاولة للهروب من ثقل الواقع، ابتكرت عطرًا جديدًا أطلقت عليه اسم “مكونة”، كانت رائحته أنثوية على نحوٍ فريد.

في المقابل، كان يكتفي بإرسال السيدة القروية لتفقد أحوالها يوميًا، فكانت زياراتها أشبه بدقات منتظمة في يومها الصامت. وكل يوم، حضرت فاطمة، لكن هذه المرة بدت أكثر بهجة، ترتدي لباسًا مزركشًا وتاجًا من الورود يزيّن حجابها.

لاحظت فاطمة ملامح الحزن في عينيها، فحاولت إدخال بعض الدفء إلى قلبها، وقدمت لها سلة من الورود النادرة. أخذتها سارة وشكرتها، ثم وضعتها جانبًا دون اكتراث.

قالت فاطمة بلطف:

—لا ينبغي أن تحزني في أول أيام موسم قطاف الورود، حتى لا تغضب منك ورود قلعة مكونة.

ردت سارة بمرارة:

—وهل تقبل ورود مكونة بوردة ذابلة بينها؟ أنا متعبة جدًا... أريد الرحيل من هنا.

—ولماذا تريدون ذلك يا سيدتي؟

—هذا المكان ليس عالمي.

—عالم الزوجة هو عالم زوجها... حاولي أن تتأقلمي، فهو ليس كما تتصورين.

—أنت لا تعرفين شيئاً عما يحدث هنا... أيمكنك مساعدتي؟

هزّت فاطمة رأسها بأسف:

—لا أستطيع يا سيدتي.

ثم أضافت:

—كل ما يمكنك فعله هو الاتصال بعائلتك، لكن الشبكة ضعيفة هنا.

ترددت قليلاً ثم قالت:

—الشبكة تكون جيدة فقط في ضيعة الورود... هذا كل ما أستطيع تقديمه لك.

سألته سارة بسرعة:

—متى يبدأ الاحتفال بموسم قطاف الورود؟

—لقد بدأ بالفعل، لكن أهل القلعة لن يتجمعوا في الساحة إلا ليلاً، وسيحضر الجميع، ومن بينهم السيد العاجي... وسأراك هناك بالتأكيد.

كانت كلماتها بالنسبة لسارة كطوق نجاة.

في المساء، امتزجت الموسيقى الشعبية برائحة الورود في كل أرجاء القرية، حيث كان الجميع يحتفل بالموسم منذ الصباح.

وعندما حلّ الظلام، أخذت مصباحاً يدوياً وانطلقت نحو ضيعة الورود، متخفية بلباس تقليدي أهدتها إياها فاطمة.

عند وصولها، وجدت الحارس الليلي عند البوابة. توقفت تفكر في طريقة للتجاوز، لكن الحظ خدمها؛ إذ دخل الحارس مع كلبه فجأة، تاركاً الباب نصف مفتوح. فاغتنمت الفرصة وتسللت بسرعة إلى الداخل.

واصلت التقدم بخطوات حذرة، حتى اقتربت من مكتب زوجها. قبل أن تفتح الباب، سمعت أصواتاً من الداخل؛ صوت زوجها، وصوت امرأة أخرى لم تتعرف عليه، تختلط فيهما نبرة ألم واضحة.

حاولت الإصغاء، فالتقطت كلمات متقطعة:

—أرجوك يا صلاح، أجبني...

—لقد تأخر الوقت...

—ألم تعد تحبني؟

اختبأت في زاوية قريبة من المكتب، تنرقب بصمت.

بعد لحظات، فُتح الباب، وخرج صلاح مسرعاً، تتبعه امرأة تبكي بحرقة. اقتربا حتى توقفا بالقرب من مخبئها دون أن يلحظا وجودها.

أمسكت المرأة يده برجاء:

—أرجوك... كفى، ألا تحبني بعد؟

رد بصوت متعب:

—أرجوك يا غيثة... كفى، لا أستطيع فعل شيء.

حين رفعت سارة نظرها، تجمدت في مكانها؛ كانت هي نفسها المرأة التي رأت صورتها في الليلة الأولى داخل الكوخ.

بدأت الصورة تتضح أمامها شيئاً فشيئاً: علاقة قديمة، حب لم يُطو، وماضٍ ما زال حياً بينهما.

شعرت بوخزة غضب داخلي، ليس من الحب القديم، بل من التناقض بين بروده معها وارتبাকে معها هي.

لكنها كتمت انفعالها، وأخفت نفسها أكثر، مدركة أن ما اكتشفته قد يغيّر كل شيء

ما إن تأكدت من عدم وجود أحد، حتى اقتحمت المكتب بهدوء، ثم جلست على كرسيه، وأجرت من هاتفه اتصالاً دولياً بصديقتها كارلا. ظل الهاتف يرن دون إجابة، حتى كادت تفقد الأمل، لكن في اللحظات الأخيرة رُفعت السماعة.

وقبل أن تنطق كارلا بأي كلمة، انفجرت سارة بالبكاء مستنجدة بها. تعرّفت عليها كارلا فوراً، فحاولت تهدئتها، ثم استمعت إلى تفاصيل ما حدث. وبعد أن أنهت سارة كلامها، طلبت منها الحضور لمساعدتها قبل أن ينتهي بها الأمر إلى الخطر.

أحست كارلا بالخوف الذي يعتري صديقتها، فحاولت طمأنتها، ونصحتها بالتحلي بالصبر والهدوء، ومسايرة زوجها مؤقتاً، ريثما تتخذ الإجراءات القانونية اللازمة لترحيلها في أقرب وقت.

لم تكن سارة تبحث في تلك الليلة إلا عن السكينة، خاصة بعد نجاحها في مغادرة غرفة المكتب بأعجوبة.

وما إن وصلت إلى بوابة الضيعة، حتى لمحها كلب الحارس الليلي، فكاد ينقض عليها لولا تدخل صاحبه في اللحظة الأخيرة. وعندما تعرّف عليها، أخبرها أنه يمكنه مساعدتها في الوصول إلى زوجها، لكنها رفضت وشكرته، مؤكدة أنها ستنتظره في الكوخ.

حلّ اليوم الثالث من احتفالات موسم الورود، والذي كانت قد قررت أن تمضيه، كغيره من الأيام السابقة، في عزلة داخل غرفتها.

ومع حلول الليل، دوى صوت طرقات خفيفة على باب الكوخ، تلاها نداء السيدة فاطمة باسمها. فتحت الباب لتجدها أمامها بكامل أناقتها؛ ترتدي لباساً تقليدياً بألوان ربيعية زاهية، وتضع على رأسها تاجاً من الورود الطبيعية، بينما يخفي النقاب ملامح وجهها، ولا يظهر سوى عينيها المكحلّتين بالكحل البلدي. وكانت تحمل بين يديها ملابس تشبه ملابسها.

قدمتها لها وطلبت منها ارتدائها فوراً للانضمام إلى الاحتفال. رفضت سارة في البداية، لكن إصرار فاطمة كان أقوى.

انطلقنا نحو الحفل بسيارة زوج فاطمة القديمة. وهناك، كان المكان مقسماً بين الرجال والنساء؛ فذهبت فاطمة إلى جهة النساء، بينما توجه زوجها إلى جهة الرجال.

كانت سارة تعلم أن من الصعب التعرف عليها وسط هذا الزي التقليدي الذي أخفى ملامحها بالكامل.

كانت الاحتفالات تقترب من نهايتها، كما أخبرتها فاطمة، والتي تُختتم عادة بتتويج ملكة جمال الورد.

وفي تلك اللحظة، اعتلى زوجها صلاح المنصة بعدما نُودي باسمه للإعلان عن الفائزة التي اختارتها لجنة التحكيم.

وسط تصفيق وهتافات الحاضرين، صعد إلى المنصة بثبات. تأملته سارة من بعيد؛ بدا أكثر هيبية وجاذبية في لباسه الرسمي الأسود، وأكثر حضورًا بين الجميع.

وبصوت هادئ رخيم، أعلن اسم الفائزة، لتعود الاحتفالات من جديد، وتتعالى الزغاريد والأغاني والرقصات الشعبية.

لكن سارة وجدت نفسها فجأة وحيدة وسط الزحام، بعد أن اختفت فاطمة عن أنظارها.

أحست بالرهبة، وأخذت تبحث بعينيها عن أي شخص يمكن أن ينقذها، فلم تجد سوى صلاح وهو يغادر الحفل. أسرعت خلفه، لكنه كان أسرع منها.

حاولت اللحاق به، لكن كعب حذاءها انكسر، وأصيبت قدمها اليمنى، وسال الدم منها. رفعت رأسها، لتجده قد اختفى، وتجد نفسها وحدها على حافة جبل مظلم.

قررت الاتجاه نحو أقرب منزل للاستجداد، لكن أصوات خطوات خلفها جعلتها تلتفت فجأة. ركضت دون أن تنتظر خلفها، إلا أن ألم قدمها خانها.

رغم محاولتها الابتعاد، عجزت عن الاستمرار. استدارت مذعورة، لتتفاجأ بالمتربص بها، فصرخت:

—أهذا أنت؟ ماذا تريد مني؟

لم يجيبها، بل اقترب بهدوء، ورشّ على أنفها عطرًا، حتى فقدت وعيها وسقطت أرضًا.

وبعد ساعات قليلة، فتحت عينيها لتجد نفسها مقيدة اليدين والقدمين، وفمها مُلصق بشريط لاصق، داخل شقة صغيرة ومرتبّة. وما إن استوعبت ما حدث لها وتذكرت تفاصيله، حتى وجدت أمها يدخن سيجارته المعتادة. حاولت الصراخ، لكنها عجزت، فابتسم بخفة وجلس إلى جانبها على أحد الكراسي الخشبية وقال:

"كنتِ تظنين أنكِ ستهربين مني؟"

حاولت الرد دون جدوى، ففقهه من جديد ثم أضاف:

"أما زلتِ تملكين الجرأة للتحدث؟ حسناً، لا بأس... لنسمعك".

ثم أزال الشريط اللاصق عن فمها، فحاولت الصراخ مجدداً، لكنه ضحك ضحكة باردة وقال:

"لن يسمعك أحد في هذا المكان المهجور، يا عزيزتي".

وبنبرة متوسلة سألته:

—ماذا تريد مني يا جون؟

—وهل تجهلين ما أريده يا عزيزتي؟

—صدقني يا جون، سأدفع لك كل ديونك فور حصولي على ميراثي... فقط أرجوك أطلق سراحني، فقدمي تؤلمني.

—ديون؟ وماذا عن ثمن هذه الصورة الرائعة لك؟

ثم فتح هاتفه وأشار إلى صورة لها، لتشهق قائلاً:

—أتبتزني؟ أنت تعلم أنني كنت فاقدة للوعي في تلك اللحظة.

—ومن سيعلم بذلك يا عزيزتي؟ ما رأيك أن نغيّر العرض القديم؟ رغم كل شيء... بعد ابتعادك عني، اكتشفت أنني أحبك.

—ماذا؟! أصبحت أحبك... ما رأيك أن تصبني عشيقتي وتعملين معي؟ وسأمزق كل الصكوك التي أملكها.

—أنت مريض... لا أريدك في حياتي، أنا امرأة متزوجة الآن.

ما إن قالت عبارتها الأخيرة حتى ارتسم الغضب على وجهه، ثم قال بحدة:

—لديك مهلة شهر واحد. إما أن تسددي ما عليك، أو تعرفين العواقب.

صمتت خوفاً من رد فعله، وشعرت أنها بين نارين؛ صفقة ورطت نفسها فيها مع صلاح، وتهديد رجل مافيا خطير لا يرحم.

قبل أن ترد، رشّ عليها مجدداً عطره الغريب، ففقدت وعيها مرة أخرى.

لم تستفق إلا وهي على سريرها، وقد تم تضميد قدمها المصابة. فتحت عينيها غير مصدقة ما تراه؛ كان هو يغيّر لها الضماد بنفسه. التفت إليها وقال بنبرة مؤنبة:

—لماذا لم تخبريني أنك ستكونين في الحفل الختامي لموسم الورود؟ كنت سأرافكك.

أحست بالذهول من هذا التحول المفاجئ، وكأنه يرتدي وجهًا آخر. لم تنطق بشيء، فأضاف:

—أرجو ألا تتحركي من مكانك حتى تلتئم جروحك بسرعة. وإذا احتجت شيئاً، فقط ناديني.

—ما الذي غيّرك نحوي فجأة؟

نظر إليها قليلاً، وبدا التردد في عينيه قبل أن يجيب بنبرة صارمة:

—أرجوك... أنا إنسان في النهاية، أفهمت؟

—حسناً... جميل أنك تذكرت ذلك يا سيدي.

—سنعود إلى القصر مساءً.

ثم غادر دون مزيد من الكلام، تاركًا إياها غارقة في الحيرة:

هل يحاول التكفير عن قسوته؟ أم أن وراء هذا التغيّر لغزاً آخر؟

لكنها في النهاية أفتعت نفسها أن الأمر لم يعد مهماً... فكل ما يجمعهما مجرد علاقة مؤقتة لها نهاية محسوم

07 وصية السيد الكبير

ساد خلال تلك الرحلة الليلية جوٌّ من السلام والهدوء بينهما... بدا لها أكثر اتزانًا من ذي قبل... لم يُسئ التصرف معها، وبين الفينة والأخرى كان يستفسر عن وضع قدمها المصابة، ثم يعود ليشرّد بعيدًا، وكأن أمرًا جلاّ يشغله...

أسعدها ذلك الاهتمام الذي أبداه نحوها، حتى كادت تنسى تلك الليلة المشؤومة معه. كان الليل قاتمًا جدًّا، فلم تستمتع بسحر الطريق الجبلي ولا بالمناظر الساحرة المحيطة به... ولم تشعر بطول المسافة ولا الزمن وهي برفقته داخل السيارة، حتى وجدت نفسها أمام بوابة قصر عائلة العاجي.

نظرت إلى ساعتها، فإذا بها تشير إلى الثانية عشرة ليلاً. أعلن عن وصوله بإطلاق بوق سيارته، فانفتحت الأبواب الرئيسية للقصر بسرعة. دخلت السيارة تحت أضواء القصر التي لا تزال مشتعلة، على غير عاداتها في مثل هذا الوقت من الليل، مما أثار فضولها.

أوقف السيارة في المكان المخصص، ثم ترجل منها، وفتح لها الباب بطريقة لبقة، واقترح أن يحملها إن عجزت عن المشي، لكنها رفضت بأدب. ومع ذلك، لم يتركها، بل ساعدها متأبطًا ذراعها، وسارا معًا ببطء، بينما تكفل حارس القصر بحمل حقائبهما إلى الداخل، متمنيًا لها الشفاء العاجل.

دخلا القصر، لتتفاجأ بأن أفراد الأسرة ما زالوا مستيقظين، وعلامات التعب مرسومة على وجوههم. وما إن لمحوهما حتى هرعت إليه ريحانة باكية، تعانقه وهي تصرخ:

—السيد الكبير يموت يا صلاح... إنه يموت... لقد تأخرت عنا يا أخي!

لم تظهر عليه علامات الصدمة، وكأنه كان يعلم بحاله، فحاول تهدئتها قائلاً:

—سيكون بخير يا عزيزتي، لا تقلقي.

لكنها أضافت بنبرة منهارة:

—هذه المرة الأخيرة... يبدو أنه كان يهمل دواء الضغط، ولا يلتزم بحمية السكري... كأنه كان يسرع نهايته!

تقدمت أم ريحانة واحتضنت ابنتها محاولة تهدئتها، ثم قالت:

—السيد الكبير قوي... ولن يهزمه المرض، والطبيب المنصوري سينقذه.

لم يستطع صلاح إخفاء توتره، رغم محاولاته، وبدا ذلك واضحًا عليه وهو يعلن صعوده للاطمئنان على وضعه، والتحدث مع الطبيب. لكنه، قبل أن يخطو خطوة، ظهرت السيدة عائشة أعلى السلالم، شبه منهارة، يسندها ابنها، ويتقدمهم الطبيب والمرضتان.

نظر الطبيب إليهم، وعلامات التأثر بادية عليه، وقال بصوت متهدج:

—عظم الله أجركم في فقيدكم.

تجمّد صلاح في مكانه، ثم قال بصدمة:

—لا أفهم... لقد كان بصحة جيدة قبل أسابيع! هل أنت متأكد؟

أجابه الطبيب بهدوء:

—لم يكن يلتزم بالعلاج... أصيب بارتفاع حاد في ضغط الدم ونوبة سكر قاتلة... حاولنا إنقاذه، لكن مشيئة الله فوق كل شيء.

....

لم تتوقع سارة هذا الخبر المحزن... لظالما كرهت العجوز لما فعله بوالديها، لكنها لم تتمنّ يوماً موته. أحسّت وكأن القدر أبى أن يمنحها فرصة الاقتراب منه والتعرّف إليه عن قرب.

لم تستطع البكاء، رغم أنهار الدموع التي انفجرت داخل أسوار قصر العاجي فور إعلان وفاته. وفجأة، جفّت دموعها، لكن ضيقًا شديدًا اعتصر قلبها، وبدا لها القصر مظلمًا كئيبيًا، كأن غيمة سوداء خيّمت على أجوائه.

تكفّل رجال عائلة العاجي بمراسيم الدفن كاملة، وقبل تغطية وجه السيد الكبير للمرة الأخيرة، سُمح لكل فرد من أفراد العائلة، بشكل منفرد، بإلقاء نظرة الوداع الأخيرة قبل رحيله الأبدي.

وعندما حان دورها، ودخلت غرفته، استوقفتها تلك الرائحة الطيبة التي تفوح منه، وهو مسجّى بهدوء وسلام على نعشه. تأملته طويلًا، فرأت نورًا رباتيًا يشعّ من وجهه البشوش. أرادت أن تحدّثه، لكنها عجزت عن النطق من شدة التأثر... غير أن البسمة المرترمة على شفتيه أعادت إليها شيئًا من توازنها.

انحنى نحوه، وقبّلت جبينه، وهمست بصوت مرتجف:

—أسامحك على كل شيء... على الماضي والحاضر... على كل شيء يا جدي العزيز. لترقد روحك بسلام...
وبلّغ سلامي لوالديّ، وأخبرهما أنني أحبهما وأشتاق إليهما كثيرًا.

انتهت مراسم الجنازة بما يليق برجل ذي هيبة وسمعة مرموقة، بعد الصلاة عليه في المسجد الذي شيده بنفسه،
والذي لم يكن يعلم بوجوده سوى محامي العائلة. وقد حضر جنازته عدد غفير من الناس، شهدوا له بأعمال الخير
التي كان يقوم بها، سرًا وعلنًا.

حلّ المساء سريعًا، وبدا القصر باردًا موحشًا من دون السيد الكبير. لم تستطع نساء القصر، بثيابهن البيضاء، تبادل
حتى أطراف الحديث المعتادة. أحست سارة بإرهاق شديد، فمذ مجيئها لم تنل قسطًا من الراحة.

وعندما همّت بالانصراف إلى غرفتها، استوقفها صوت المحامي، قائلاً بنبرة حزينة:

—أعلم أن الوقت غير مناسب، لكن هناك أمرًا مستعجلًا يجب أن أنفذه، كما أوصاني السيد الكبير.

لم يكن بمفرده، بل كان برفقته صلاح، الوريث الجديد وصاحب النصيب الأكبر في إرث القصر، الذي بدا على
ملامحه التعب والحزن. لم ينطق بكلمة، ولم يذرف دموعًا أمام أحد. حاول أن يظهر متماسكًا أمام الجميع، لكنه بدا
مختلّفًا في عيني سارة...

تأملته جيدًا، فرأت فيه رجلًا هشًا، مثقلًا بالحزن، وقابلًا للانكسار في أي لحظة. ولم يكن ذلك مستغربًا، ففراق
الأحبة يرهق حتى أقوى الرجال.

في ظل تلك الأجواء الثقيلة، قالت السيدة عائشة:

—أيمكن تأجيل الأمر إلى يوم آخر يا سي إبراهيم؟ لقد كان يومًا شاقًا... ولم نستوعب بعد ما حدث.

أجابها بهدوء:

—إنها وصية المرحوم، يا لالة عائشة، ويجب تنفيذها كما أراد... لقد طلب مني ذلك في أول ليلة له في دار
البقاء.

ساد الصمت بعد كلماته، ولم يعترض أحد.

طلب من الجميع الجلوس، ثم أخرج حاسوبه المحمول من حقيبته، وأشغله، وأدخل قرصًا دائريًا، ووضع بجانبه مجموعة من الأظرفة البيضاء.

وفجأة... ظهر السيد الكبير على شاشة الحاسوب، بكامل صحته، مرتديًا جلبابه الأبيض وسلهامه الأنيق. تباينت ملامح الحاضرين بين الدهول والفرح، وابتسم لهم، ثم بدأ يخاطبهم:

— لا تفزعوا، رجاء... أجل، إنه أنا، السيد الكبير... وأنتم تشاهدون هذا الشريط المسجل، أكون الآن في داري الأبدية.

— أحبائي، بناتي العزيزات: عائشة، وأم ريحانة، وصالحة... وأحفادي الأعزاء: صلاح، ويوسف، وريحانة، والغالية ابنة الغالي سارة... والسيدة الطيبة خوج...
أتمنى أن يفي الصديق والأخ العزيز سي إبراهيم بوصيتي، وأن تُتلى عليكم في هذه الليلة.

— أحبائي، قبل أن أدخل في صلب الموضوع، أود أن أخبركم أن هذا الشريط بمثابة وثيقة قانونية، أدليت بها وأنا بكامل قواي العقلية والبدنية، وكل ما فيها يجب أن يُنفذ بتفاصيله، وأي معترض أو معترضة يُعدّ محرومًا من ثروتي.

— أحبائي، لطالما فكرت كيف سأوزع هذه الثروة الضخمة، ولكن حتى لا أظلم أو أشرد أحدًا من أفراد عائلتي الغالية، سيظل قصر العاجي ملاذًا لكل أفراد، لذلك لا يحق لأيّ منكم التصرف فيه، لا بيعًا ولا شراءً ولا رهناً.

— ابن أخي العزيز صلاح، أعلم أنني عارضتك في أوقات، وربما كرهنتي لأنك اعتبرتنني ضد سعادتك، لكنني كنت أرى أشياء عجزت خبرتك في هذه الدنيا عن رؤيتها.

— ابن أخي وشريكي الصغير، أعلم أنني تأخرت في منحك نصيبك الشرعي، لكن ذلك كان حرصًا على مصالحك، حتى تصبح رجلًا كما أنت اليوم: قويًا، ذكيًا، حازمًا... أفتخر بك.
لذلك، فإن خمسين في المئة من أسهم مجموعة الشركات والأراضي التي أملك هي حقك الشرعي من ميراث والدك، الذي كان شريكي بمجهوده وأمواله في بناء إمبراطورية العاجي.

— ابنتي عائشة، وتوأم روحي، وهدية زوجتي الغالية التي لا تُقدّر بثمن... سامحيني إن كنت قاسيًا معك يومًا...
...

لكن الخوف من فقدانك، وأنا نيتي، جعلني أرفض من يتقدم لك وأنت أرملة في ريعان شبابك، خشية أن تبتعدني

عني فأفقد دفء عطفك.

أما بخصوص ميراثك من والدتك، فهو بالمناسبة بينك وبين ابنة أخيك الوحيدة (سارة)، ولك ربع الأراضي التي أملك... أرجوك اعطني بصغيرتي.

—بنات أختي، أم ريحانة وصالحة وريحانتي الصغيرة... ستكون لكنّ، بالمناسبة، تلك الضيعة التي لطالما حلمت بها، وتركت لكنّ رصيّدًا من المال يكفي كل واحدة منكن لما تبقى من حياتها.

—يوسف، أه يا يوسف، يا حفيدي المتمرد... تذكرني أحيانًا بفترة طيشي، لكنك وعدتني بأن تكون مسؤولًا، وأنا أثق بك، لذلك سأمنحك خمسة وعشرين في المئة من الأسهم في مجموعة مؤسسات العاجي. أريدك شابًا ناجحًا، وأعلم أنك ستتغلب على إدمانك في أقرب وقت.

—سارة، يا حفيدتي الغالية... أعلم أنك تستغربين نعومة أسلوب معك، وربما تلقينني بالعجوز المخادع... لكنك كنت الفرحة والبشرى السارة لي...

كنت كلما نظرت إلى عينيك رأيت فيهما تساؤلات كثيرة، لكنني أخشى ألا يمهلني الوقت لأجيب عنها كلها.

—لقد كان والدك يرسلني، لكنني كنت غاضبًا منه لأنه رحل بعيدًا، وهو الابن البكر لي. كان يرسل رسائل من دون أن يتلقى أي إجابة مني، لكنه لم يستسلم... أرسل إليّ صورة لك وأنت لا تتجاوزين يومًا واحدًا، ثم صورة أخرى لك بعمر ثلاث سنوات، وأخبرني أنك مرحة جدًا، وأنتك تشبهيني في أشياء كثيرة. وبعد سنوات، أرسل إليّ رسالة يطلب فيها الصفح عن كل ما بدر منه نحوي... تعلمين كم كنت أنتظر تلك الرسائل؟ لكنني كنت أكابر... حتى اختفت رسائله فجأة، واختفى معها.

—حفيدتي الغالية سارة، تغلبت على عنادي لاحقًا، ودفعني الشوق لمعرفة سبب غيابه، ففجعت بوفاته... فدخلت في حالة اكتئاب طويلة، خاصة وأن تلك السنة صادفت وفاة أخي الصغير أيضًا. وبعد أن استعدت توازني، بحثت عنك، فأرسلت متحرّيًا خاصًا إلى لندن، لكنه لم يعثر عليك، حتى نجح صلاح في ذلك، فوجدك وأنتِ شابة يافعة، وأعادك إلى أحضاني... لو تعلمين كم أسعدني ذلك.

—حفيدتي سارة، أعلم أن خمسة وعشرين في المئة من الأسهم غير كافية، ولن تعوضك عن الغربة والحرمان الأسري... أعلم أنك تحبين العطور مثلي، لذلك خصصت لك رصيّدًا ماليًا لتبديني مشروعك وتحققي أحلامك... وأنتِ بيننا.

—السيدة الطيبة خدوج، الأخت الغالية، رفيقة كفاحي أنا وزوجتي إيثري... أشكرك على ما قدمته لنا، وأتمنى أن يكفيك المبلغ الذي تركته لك مع سي إبراهيم لتجهيز ابنتك الوحيدة... فأنت جزء من العائلة، ومرحب بك دائماً بيننا.

—أحبائي، بهذا أكون قد أنهيت وصيتي، التي لن تتحقق إلا باتباع الشروط التي سيخبركم بها سي إبراهيم... ولا تنسوني من الدعاء والصدقات، فقد أصبحت في أمس الحاجة إليهما.

ما إن أنهى خطابه حتى اختفى عن شاشة الحاسوب، وارتسمت على الوجوه علامات الارتياح، إذ بدت الوصية عادلة ومنصفة.

لم يتأخر السيد إبراهيم، فأعطى كل واحد من أفراد العائلة ظرفاً أبيض مغلقاً من الأطراف الموضوعه بجانبه، وقال:

—هذا الظرف يضم الشروط التي يجب أن يلتزم بها كل واحد منكم للحصول على نصيبه الذي حدده المرحوم السيد الكبير، رحمه الله. وهي تُعد وثائق قانونية، ولدي نسخة من كل منها. وفي حال مخالفة مضمونها من أي منكم، يُحرم تلقائياً من الميراث.

تدخلت أم ريحانة متسائلة:

—أتعلم مضمون كل ظرف من هذه الأظرف، يا سيد إبراهيم؟

—بالتأكيد، كل شيء تم بعلمي وبحضور مجموعة من الشهود الموثوق بأهليتهم القانونية.

كانت تلك أطول ليلة وأصعبها على العائلة. فبعد الفراق، جاء زمن تقسيم الثروات. انشغل كل فرد من عائلة العاجي بتقييم نصيبه، وتبدلت ملامح كثيرة من العيوس إلى الانشراح.

أما سارة، فذهلت من ذكاء الرجل، بعدما أدركت مغزى هذه الوصية في هذه الليلة بالذات. فبعد أن أحزنهم بتصرفاته غير المفهومة في حياته، ها هو بعد رحيله يعود ليزرع في دواخلهم الطمأنينة، ويترك وراءه أثراً طيباً لا يُنسى.

الجميع يحلم بالثراء السريع، لكن لا أحد يتمنى أن يكون هذا الثراء مشروطاً. لم تتوقع سارة أن تجد أحلامها مرهونة بظرف صغير أبيض.

تمدّت على سريرها، والظرف بجانبها. نظرت إليه ملياً، والفضول يلتهمها، وفي الوقت نفسه كانت تخشى ما يخفيه. وبعد تردد، تناولته وفتحته، ففوجئت بمحتواه.

كانت صورة عائلية لها مع والديها، وهي في العاشرة من عمرها. تأملتها حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وكأن العجوز يحاول أن يثبت صدق كلماته السابقة. وبينما كانت تقبل صورة والديها، لمحت في خلفيتها عبارة كتبت بقلم أسود:

"في الدنيا كنوز كثيرة ومتنوعة، ولي فيها كنز لا يُقدّر بثمن... إخلاصك وعنايتك به سيجعلانني ثرياً، ويجعلانك أكثر ثراءً مني... هذه وصيتي لك يا عزيزتي".

لم تفهم مغزى الرسالة، ولا عن أي كنز يتحدث. بدت لها رسالة مشفرة، تحتاج إلى من يفك رموزها.

في تلك الأثناء، طُرق باب غرفتها، وسمعت صوت السيدة عائشة:

— ألا تزالين مستيقظة يا عزيزتي؟

أعدت الصورة بسرعة إلى الظرف، ثم فتحت الباب ورحبت بها. جلست السيدة عائشة على طرف السرير وقالت:

— رأيت زوجك يغادر للتو، فاستغللت الفرصة لأراك قبل أن يعود.

أجابت سارة بتردد:

— نعم، أخبرني بذلك.

انتبهت السيدة عائشة إلى الظرف الممزق على السرير، فسألت:

— هل قرأت وصية السيد الكبير؟

— نعم.

— أهنأك شيء مقلق فيها؟

— إنها رسالة مشفرة.

ثم ناولتها الصورة.

ابتسمت السيدة عائشة فور قراءتها، وقالت:

—حتى بعد رحيلك يا والدي الحبيب، ما زلت حكيمًا...

ثم أعطتها طرفها الخاص، وطلبت منها قراءة محتواه. كانت وصيتها صورة لزفاف والديها. ذهلت سارة من الشبه الكبير بين جدتها إيثري والسيدة عائشة.

قلبت الصورة، فوجدت خلفها عبارة:

"لن تنالي كنزك إلا بعد تحقيق سعادتك".

رفعت سارة رأسها وقالت باستغراب:

—وماذا تعني هذه الرسائل؟

ابتسمت السيدة عائشة وقالت:

—يبدو أن والدي نادم لأنه كان عائقًا أمام سعادتي بعد ترملي... لكنني أسامحه. سأحقق هذا الشرط، ليس من أجل المال، بل من أجله.

قالت سارة:

—تحليلك منطقي... لكن الكنز الذي ذكره في وصيتي ما زال لغزًا.

ابتسمت عائشة مجددًا وقالت:

—أعدي قراءة الرسالة بصوت عالٍ.

فعلت سارة، ثم سألتها:

—ما الشيء الذي ينفع الإنسان في حياته وبعد موته؟

— لا أدري.

— فكّري جيداً... شيء نحتاجه، خاصة بعد الرحيل.

— للأسف... لست متديّنة.

— لا بأس... عندما يرحل الإنسان، لا يبقى منه إلا أثره الطيب، ولا ينفعه إلا الدعاء والصدقة. والدك ترك كنزاً من هذا النوع... وجعله أمانة بين يديك.

قالت سارة:

— أظنني فهمت... أهو المسجد الذي اكتشفنا أمره بعد وفاته؟

— نعم، يا عزيزتي. ومهمتك هي العناية به. إخلاصك في ذلك سيمنحك ميراثك... وربما أكثر من ذلك.

— غريب... ولماذا اختارني أنا؟

— لأنه يجبك... وما أوصاك به فيه خير لك وله ولنا جميعاً... وسنساعدك على النجاح في هذه المهمة. رحمك الله يا أباي.

08 على حافة الانهيار

بعد مرور ثلاثة أسابيع على رحيل كبير عائلة العاجي، صارت الأيام متشابهة في القصر. حاولت السيدة عائشة الحفاظ على لمة العائلة كما كانت في عهد والدها، فظلّ كرسيه فارغاً خلال وجبات الإفطار والغداء والعشاء.

حرصت سارة على الالتزام بعادات العائلة، فكانت تحضر اللقاءات العائلية بانتظام، ولم يغب عنها خلال هذه الفترة سوى صلاح ويوسف، اللذان سافرا إلى خارج البلاد لإعادة ترتيب أمور العمل، خاصة بعد رحيل كبير العائلة.

وفي إحدى الأمسيات، وبينما كانت نساء العائلة مجتمعات حول مائدة العشاء، قالت أم ريحانة، مخاطبة السيدة عائشة:

—سنسافر الأسبوع المقبل، أنا وابنتي وأختي، إلى الضيعة التي منحها لنا، لنرتب أمورها.

تفاجأت السيدة عائشة من حديثها، وردّت بنبرة صارمة:

—هذا الوقت غير مناسب للحديث عن الميراث يا أم ريحانة، ولم يمضِ على رحيل والدي سوى أسابيع قليلة.

ما إن أنهت جملتها حتى بدت علامات الغضب على وجه أم ريحانة، وقالت بنبرة قاسية:

—المرحوم لم يغب عنا لأسبوعين، بل رحل عنا رحيلاً أبدياً، والميراث حق شرعي للورثة...

وقبل أن تكمل حديثها، جاء صوت رجولي مألوف من الخلف:

—وهل نُقِدت وصية السيد الكبير كما يجب، يا سيدة أم ريحانة؟

التفتت الأنظار بدهشة، ليظهر السيد إبراهيم في هذا الوقت المتأخر من المساء. ولما لم تُجبه، أضاف:

—سمعت حديثك صدفة، وأود أن أذكرك بشروط المرحوم، التي يجب الالتزام بها للحصول على ميراثك.

عجزت أم ريحانة عن الرد، فتدخلت ابنتها معذرة:

—جدي غالٍ علينا جميعاً، وأمي لم تستوعب بعد غياب القصر من دونه... وسنلتزم بالوصية حرفياً.

لم تتأخر السيدة عائشة في الرد:

— لا تبرري يا عزيزتي، فالجميع يعلم طباع أمك منذ زمن.

وفجأة، انهارت أم ريحانة بالبكاء، فحاولت أختها سالحة وابنتها تهدئتها، ثم اصطحبتاها إلى غرفتها. علقت السيدة عائشة بصوت خافت:

— ها قد بدأت دموع التماسيح تنهمر من جديد.

ما حدث كشف لسارة وجود توتر قديم بين العممة عائشة وأم ريحانة، لم يظهر للسطح إلا بعد رحيل السيد الكبير.

لم تمض لحظات حتى دخل صلاح، تبدو عليه علامات الإرهاق. ألقى تحية مقتضبة على الجميع، ثم تجاهل سارة بشكل لافت، قبل أن يتجه مع المحامي إلى مكتب القصر.

وبعده بقليل، دخل يوسف، هو الآخر مرهق، حيّاهم بسرعة، وجلس يأكل بنهم، مما أثار ابتسامة خفيفة.

قالت أمه مازحة:

— يبدو أنك لم تأكل منذ الصباح!

— وهل يتركني صلاح آكل كما أشاء؟ لقد قضينا معظم وقتنا في الاجتماعات.

— الحمد لله على سلامتكما، الآن ستأكلان كما تريدان.

— الشكر لتلك المكالمة المفاجئة التي عجّلت بعودتنا.

— هل هناك أمر خطير؟

— لا أدري... أظن أنه أمر يخصه.

حاولت سارة البقاء أطول وقت ممكن على مائدة العشاء، علّها تفهم ما يحدث مع زوجها، لكن تأخره الطويل مع المحامي دفعها إلى الانسحاب إلى غرفتها، خاصة بعد مغادرة العممة عائشة وابنها.

قضت الليل تتقلب في فراشها، تنتظر دخوله، حتى بزغ الفجر وغفت قليلاً. لكن حركة مفاجئة في الغرفة أيقظتها، لتجده جالساً بجوارها، وعلامات الغضب مرسومة على وجهه الشاحب.

بدأت ملامحه غريبة، فسألته:

— هل أنت بخير؟ أخبرنا يوسف أن أمرًا عاجلاً استدعاكما...

ظلّ ينظر إلى الأرض، ثم قال بنبرة قاسية:

— نعم... للأسف، أنتِ السبب. كدت أن أخدع فيك... ظننتكِ إنسانة طيبة، ولامني ضميري لأنني أسأت إليك... لكنكِ في الحقيقة خبيثة، وهذا ليس غريبًا عمّن تعرض جسدها على المنصات العالمية مقابل المال.

صُدمت من كلماته، وكأنها طعنات متتالية. لم ترد الإساءة بمثلها، وقالت بصوت متوسل:

— ما الذي غيرك نحوي هكذا؟ كنت بالأمس مختلفًا...

أخرج ورقة من جيبه ورماها نحوها:

— لم أتوقع أن يصل بك الجشع إلى هذا الحد.

قرأت الورقة، فصُغقت... كانت استدعاءً من السفارة البريطانية، يتهمها باحتجاز مواطنة بريطانية وإجبارها على الزواج، وممارسة العنف الزوجي عليها.

عجزت عن الكلام، فقال بصرامة:

— سنذهب إلى المحكمة غدًا، وستتنازلين عن القضية دون فضائح.

غادر الغرفة، تاركًا إياها غارقة في دوامة من المشاعر المتناقضة. شعرت بالندم على تسرعها، ولم تفهم سبب هذه المشاعر الجديدة تجاهه.

وفي صباح اليوم التالي، وجدت السيد إبراهيم بانتظارها في حديقة القصر. صعدت معه إلى السيارة، لتجد نفسها لاحقًا في قاعة المحكمة، بجوار صلاح، الذي لم ينظر إليها طوال الإجراءات.

تنازلت عن القضية بإرادتها، لا خوفًا منه كما يعتقد، وكان المحامي الشاهد الوحيد... لتبقى هذه القصة سرًا بينهم

انتهى كل شيء، وانسحب صلاح مغادرًا، وكأنه لا يعرفها. حاولت اللحاق به لتعتذر، لكنه صدّها قائلاً:

—أرجوك، لا تقتربي مني مرة أخرى.

بدا غاضباً بشدة. لاحظ المحامي حزنها، فقال:

—اتركيه يشفى من جراحه يا ابنتي. لم يستوعب بعد وفاة السيد الكبير، ثم وجد نفسه مضطراً لدفع غرامة مالية كبيرة.

نظرت إليه بحزن وقالت:

—صدقني يا عم إبراهيم، لم أقصد الإساءة إليه. لن أنسى ما فعله من أجلي... كل ما أتمناه هو أن يسامحني.

أشفق عليها، وأجاب مطمئناً:

—أعلم ذلك يا ابنتي... وأصدقك.

لم ترغب في مغادرة غرفتها منذ عودتها من المحكمة، ولم تستطع أن تشرب سوى فنجان قهوة بعد إلحاح من السيدة خدوج، التي عادت بعد قليل حاملة هاتفاً نقالاً، وقالت:

—يبدو أنك نسيت هاتفك في الحديقة... كان يرن باستمرار.

وفي تلك اللحظة، اقتحم صلاح الغرفة. انسحبت خدوج بهدوء. لم ينظر إلى سارة، ولم يكلمها، بل اتجه إلى خزانته، وأخذ يضع ملابسه في حقيبة سفر.

لم تتحمل تجاهله، فسألته:

—إلى أين أنت ذاهب؟

التفت إليها بنظرة غاضبة:

—لا شأن لك.

قالت بعصبية:

—لا تقلق، قريباً سأرحل عن هذا القصر.

أغلق حقيبته بإحكام، وقال دون أن ينظر إليها:

—لم أعد أريد رؤية وجهك. بعد انتهاء فترة الحداد، ستحصلين على حريتك وميراثك، وترحلين دون عودة.

أجابته بنبرة متحدية:

—هذا ما أتمناه... وبأسرع مما تتوقع. لم أعد أريد أن أكون أسيرة هذا القصر... ولا أسيرة لك.

صمت قليلاً، ثم نظر إليها نظرة حاسمة:

—كما تريد.

حمل حقيبته وغادر. شعرت بوحدة قاتلة. لم تفهم هذه المشاعر الجديدة التي بدأت تتسلل إليها نحوه، ولا ذلك الندم الذي يثقل صدرها. ألم تكن تتمنى الحرية؟ لقد حصلت عليها... فلماذا تتمنى الآن فقط أن يسامحها؟

في تلك اللحظة، رنّ هاتفها. نظرت إلى الرقم، ثم أجابت بصوت باهت بالإنجليزية:

—كارلا... كيف حالك؟

—ما بك؟ تبدين متعبة.

—أنا متعبة جداً... لقد أخطأنا في حق هذا الرجل يا كارلا.

—عن ماذا تتحدثين؟ لم أفهم... اسمعيني، أنا الآن في إمليل.

اتسعت عينا سارة دهشة:

—حقاً؟

—نعم، سأرسل لك عنوان الفندق. أريد أن أراك الآن.

اختارت سارة فستاناً من الفساتين التي اشتراها لها صلاح، وطلبت من سائق العائلة أن يوصلها. لم يستغرق الطريق سوى عشرين دقيقة.

عند وصولها، أبلغت موظفة الاستقبال بصديقتها، وبعد اتصال قصير، حصلت على رقم الغرفة. صعدت مسرعة، وما إن فتحت كارلا الباب — بشعر مبلل وملابس استحمام — حتى صرخت بسعادة واحتضنتها:

—اشتقت إليك يا رمادية العينين!

بعد لحظات، طُرق الباب. دخل موظف يحمل فطورًا تقليديًا، شكرته كارلا، ثم قالت:

—تعلمين أنني لا أستيقظ مبكرًا للفطور.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا. حاولت سارة الأكل، لكنها لم تستطع.

سألته كارلا:

—سمعت أنك تنازلت عن القضية... هل هددك ذلك الرجل؟

أجابت بهدوء:

—لا... بل وعدني بالطلاق بعد انتهاء فترة الحداد.

ضحكت كارلا:

—إذن نجحنا! لا بأس بالتنازل مقابل ذلك... لكن لماذا تبدين حزينة؟

قالت سارة بصوت مثقل:

—أنا نادمة... لقد آذيته. كان لطيفًا معي... ساعدني، واهتم بعلاجي... إنه رجل طيب... أتمنى أن يقبل اعتذاري.

نظرت إليها كارلا بدهشة:

—هل تحبينه؟

ترددت سارة:

—لا... مجرد تأنيب ضمير.

ابتسمت كارلا بمكر:

—ربما... لكن الأهم هو سعادتك. حاولي الاعتذار له.

قالت سارة:

—أخشى أن يرفض... ويجرح كبريائي.

—لا كبرياء أمام السعادة.

بدت كلماتها غامضة. وقبل أن تسألها، نظرت كارلا إلى الساعة:

—لدي اجتماع في مراكش بعد ساعة.

—إذن، لولا العمل لما رأيتك؟

—كنت أنوي زيارتك لاحقاً... لكن القدر سبقني.

أخرجت بطاقة دعوة وسلمتها لها. تعانقتا، ثم غادرت سارة الفندق.

وقبل أن تخرج، نادتها موظفة الاستقبال باسمها، وسلمتها ظرفاً أبيض، قائلة:

—هذا لك... من أحد النزلاء السابقين. انتظري طويلاً، ثم تركه لك.

فتحت الظرف، وقرأت:

"لم يبق سوى أسبوعين على موعدنا يا حبيبتى".

تجمّدت عندما رأت التوقيع:

جون دون ألبير.

شعرت بأنفاسها تضيق، وكأنها محاصرة. تسارعت دقات قلبها، وتقلصت الخيارات أمامها... وأدركت أن لا أحد سينقذها سوى نفسها.

09 حين يبدأ القلب بالاعتراف

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحًا، عندما وقفت السيدة عائشة بجوار رأسها، تذكّرها بوصية السيد الكبير، حاملة بين يديها صينية عليها فنجان شاي أخضر ساخن، مع فطيرة وبعض الجبن والبيض المسلوق، وقليل من الزيتون المتبل بالأعشاب البرية.

فتحت سارة عينيها بصعوبة، فقد أدركت أن لا أحد سيزعجها بعد أن غادر صلاح القصر واختفى عنه. لم تكلف نفسها حتى عناء السؤال عنه، ولم تعلم أنه سافر في رحلة عمل إلا صدفة، حين أخبرتها السيدة خدوج وهي تثرثر كعادتها.

بعد أن أنهت فطورها، قدمت لها السيدة عائشة لباسًا تقليديًا أنيقًا وفضفاضًا، مع حجاب بنفسجي اللون، وطلبت منها ارتدائه. ما إن فعلت ذلك حتى انبهرت بها عائشة. بدا اللباس الفضفاض كأنه يكسوها وقارًا خاصًا، وأعادها بذاكرتها إلى راهبات الدير اللواتي كن يزرن مدرستها قديمًا.

لم تعترض سارة على أي طلب من عمته. كانت تريد فقط تنفيذ الشرط، والحصول على الثروة، وإنهاء كل ما يثقل حياتها.

كان الموقع الذي توقفت فيه سيارة العائلة محاطًا بتلال ساحرة، ويقع على مسافة بعيدة عن القصر، في منطقة شبه معزولة. وما إن وصلتا حتى استقبلتهما سيدة يبدو أنها على علم مسبق بالزيارة، فبادرت بالترحيب بهما، ثم أخذتهما في جولة للتعريف بأركان المسجد.

كان المسجد واسع المساحة، يضم قاعة للرجال وأخرى للنساء، لكنه لم يكن مكتمل التجهيز بعد. وأثناء تنقلهن بين أركانه، قالت المضيفة بنبرة حزينة:

—لقد كان السيد الكبير، رحمه الله، يريد إتمامه... لكن إرادة الله فوق كل شيء.

ردّت السيدة عائشة بنبرة مطمئنة:

—ستكفل السيدة سارة العاجي بإتمامه، وسيحقق كل ما أراه السيد الكبير.

فرحت المضييفة كثيرًا وشكرتهم بحرارة. أما سارة، فقد شعرت أنها وُضعت أمام مسؤولية تفوق توقعاتها، خاصة وأن علاقتها بالدين كانت شبه غائبة.

بعد انتهاء الجولة، سلّمتها المضييفة قائمة بالاحتياجات اللازمة لإتمام المسجد، الذي بدأ حديث العهد ويحتاج إلى الكثير.

في طريق العودة، قرأت سارة القائمة، لكنها لم تفهم معظم محتواها، فقد كُتبت بلغة عربية فصيحة دقيقة. ابتسمت السيدة عائشة وقالت:

— لا تقلقي، سأترجمها لكِ إلى الإنجليزية. كنت أتمنى أن أرافقكِ غدًا، لكنني أشعر ببعض الألم في قدمي، وسأزور الطبيبة للاطمئنان.

أحست سارة بتأنيب ضمير، وقالت:

— آسفة لأنني أتعبك معي.

— لا يا عزيزتي، أحتاج فقط إلى الراحة وسأتحسن. وإن لم تكوني مستعجلة، فسأكون بخير.

قاطعتها سارة بسرعة:

— لا تقلقي، سأكمل كل شيء.

قضت سارة يومًا حافلاً مع عمته في المسجد، ثم تناولتا الغداء في أحد المطاعم العالمية، قبل أن تقوما بجولة قصيرة في المنطقة. بدأت سارة تنجذب إلى المكان، وتشعر أن روحها تتأقلم مع هذا الهدوء الساحر، رغم يقينها أنها ستغادر قريباً.

في المساء، انسحبت السيدة عائشة إلى غرفتها، بينما جلست سارة وحدها في حديقة القصر، تستمتع برائحة الورد، وترتشف فنجان حليب بالشوكولاتة أعدته لها السيدة خدوج. تصفحت بعض المجلات المحلية التي اشترتها في الطريق، ففوجئت بصورة تجمع زوجها صلاح مع عشيقته السابقة غيثة.

كان العنوان بالكاد مقروءًا:

"شراكة جديدة تجمع عمالقة الورود في البلاد – الأنسة غيثة الأنصاري وصلاح العاجي"

تجمدت في مكانها. شعرت بالغضب يشتعل في داخلها. رأت في الصورة غيثة بفستان أسود أنيق، ساحرة وجذابة، بينما بدا صلاح قريباً منها بطريقة أربكتها.

أغلقت المجلة بعصبية، ثم رفعتها سيارة العائلة وهي تدخل البوابة. نزل صلاح، لكنه لم يكن وحده... كانت غيثة معه.

توجه الاثنان معاً نحو القصر، بدت عليهما علامات الانسجام. اقتربت غيثة من سارة بابتسامة باردة وقالت:

—سمعت أنك لا تترتاحين هنا، وأنتِ ستغادرين قريباً... هل تتوين الطلاق؟

ردت سارة بحدة مكبوتة:

—لا، لن نطلق. إنها فترة مؤقتة فقط.

ابتسمت غيثة بخبث:

—مع ذلك... يبدو أنه غير مرتاح معك.

تجاهلتها سارة، فنهضت غيثة قائلة بنبرة خافتة:

—أرجوك... لا تعقدي الأمور علينا.

ثم غادرت.

في المساء، جلسوا جميعاً على العشاء: صلاح، سارة، يوسف، وغيثة. كان الجو مشحوناً. أعلن صلاح عن شراكته الجديدة، وتحدثت غيثة بثقة واضحة عن المستقبل.

تدخل يوسف مازحاً:

—أمي أخبرتني أنك تريدين التسوق غداً، يمكنني مرافقتك.

لكن صلاح قاطعه فجأة بنبرة حادة:

—كيف تتوقع أن أسمح لك بمرافقة زوجتي؟

ساد الصمت. اعتذر يوسف مرتبًا.

ثم قال صلاح بهدوء حاسم:

—لدي وقت لكل شيء... خاصة لزوجتي.

صمتت سارة، لكنها شعرت بغرابة كلمته "زوجتي". كانت بين الرفض والارتباك، وبين ارتياح خفي لم تفهمه.

بعد العشاء، انسحبت إلى غرفتها. وما إن أطفأت الأنوار حتى فُتح الباب فجأة. كان صلاح أمامها.

تراجعت بخوف، فقال ببرود:

—لا تقلقي... لم آت لإيذائك. فقط لأخبرك أن السائق سيأخذك غدًا للتسوق.

سألته بصوت منخفض:

—لماذا تساعدني؟

أجاب دون أن ينظر إليها:

—لأنني أنفذ وصية السيد الكبير.

في صباح اليوم التالي، ارتدت سارة ملابس أنيقة، وبدت مختلفة تمامًا. أخذها السائق إلى شركة ضخمة في مراكش.

بعد دقائق، وصل صلاح. جلس بجانبها وقال للسائق:

—خذنا إلى متجر محترم أو محل عبايات.

قالت سارة بهدوء:

—لا أريد عباية، هذه احتياجات المسجد.

نظر إليها ساخرًا:

—إدًا تحتاجين عباية أولاً... هذا لباس لا يليق بمكان كهذا ولا بامرأة متزوجة.

ردّت بتحد:

—زواجنا صوري، ولن أتصرف كأنني لست أنا.

غضب وقال:

—ما دمت زوجتي، فستحترمينني.

مرت الساعات بين شراء المستلزمات وزيارة مطاعم. ورغم الخلاف، بدأ بينهما نوع من الهدوء الغريب. كان يتعامل معها بلطف متقطع، وهي بدورها بدأت تلاحظ فيه شيئاً لم تفهمه.

وفي الأيام التالية، انشغل صلاح عن عمله ليدعمها في مشروع المسجد، وبدأت سارة تتعلم أشياء جديدة عن الدين والحياة، وشعرت لأول مرة بشيء يشبه الطمأنينة.

ومع اقتراب نهاية الأسبوعين، اكتملت المهمة كما أوصى السيد الكبير.

قال المحامي مبتسمًا:

—بارك الله فيكما... لقد صار المسجد أجمل مما كان يتمنى.

قالت سارة بحماس:

—بقي فقط ترجمته وتوظيف معلمات لتعليم النساء القرآن.

ثم أضافت:

—أريد أن أترك أثراً طيباً هنا.

في تلك اللحظة، قال صلاح بهدوء:

—لقد آن الوقت لتحريرك من هذا القصر.

تدخل المحامي:

—بعد يومين، ستصرفين بثروتك كاملة.

قال صلاح بصوت منخفض:

—وسأفعل الشيء نفسه... بعد عودتي من السفر.

عندها، شعرت سارة بشيء غريب في صدرها. لم تعد تعرف إن كان هذا ما تريده حقاً... أم أنها بدأت تفقد شيئاً لم تكن تعترف بوجوده أصلاً.

10 اعترافات متأخرة

وصلت إلى فندق أطلنطا الكائن بمركز المدينة الحمراء مراكش، متأخرة بنصف ساعة عن موعدها، فوجدت العرض في بدايته. كان الحضور غفيراً، ويضم الطبقة المخملية من المجتمع، إضافة إلى بعض الصحفيين. رافقتها إحدى الفتيات المكلفات بالاستقبال إلى مقعدها المخصص لها، والذي كان من ضمن المقاعد الأمامية. كان المقعد المجاور لها خالياً، وهذا ما تفضله عادة عند وجودها في أحد الأماكن العمومية.

كان العرض لأحدث تصميمات القفطان المغربي العالمي. بدت كارلا كالأميرات بكل قفطان ارتدته تلك الليلة. لمحتها كارلا بين الحضور، فارتسمت على وجهها البهجة لرؤيتها وابتسمت لها، فأرسلت إليها سارة قبلة صغيرة.

كانت تخشى أن يتعرف عليها أحد، خاصة وأنها كانت ترتدي فستاناً ذهبياً طويلاً لا يظهر من مفاتها شيئاً، وتغطي عينيها بنظارات سوداء من علامة تجارية عالمية، وقد وضعت شالاً حريريّاً ذهبياً يظهر نصف خصلات شعرها الأمامي. كانت تخشى الصحافة الموجودة هناك، والتي كانت تعرف بعض وجوهها.

استمر العرض قرابة الساعتين. لم تكن تخشى شيئاً، فهي تعلم أنه لن ينتبه لغيابها سوى السيدة خدوج، خاصة بعد سفر عمته وعدم اهتمام زوجها الذي هجرها وقریباً سيطلقها.

ما إن أعلن عن نهاية الحفل حتى انطفأت الأضواء، وأشعلت أضواء خافتة على مسرح العرض. وفجأة أحست بيد قوية تقبض على يدها، وبصوت رجولي مألوف يخاطبها أمراً:

- حتى لو تغيرت على الجميع، لن تتغيري عليّ. تبدين فاتنة بهذا الزي الشرقي. اشتقت إليك يا حبيبتي.

نظرت إليه مذهولة، فهو دائماً يفاجئها في الوقت والمكان الخاطيء. استجمعت قوتها وردت عليه:

- أرجوك يا جون، دع يدي، سوف تكسرهما.

أزال نظارته السوداء، ثم أمرها بأن ترافقه دون إثارة المشاكل. سحبها من يدها بقوة إلى إحدى الغرف الخاصة به، وأغلق الباب خلفهما، فصرخت به خائفة:

- بعد يومين سوف أدفع كل ديونني، أرجوك دعني أرحل.

حملق بها بنظرات مريبة وملينة بالرغبة والغضب، وقال بنبرة مخيفة:
- ومن أخبرك أنني أحضرتك من أجل الديون؟ أعتقد أنك تقرئين أفكاري، أم أنك فقدتِ حاستك السادسة التي
أخبرتني عنها يا حبيبتي.

شعرت بالرغبة تجتاح كل أوصالها، وصرخت فيه:
- كل ما يجمعنا هو تلك الديون، وبعد يومين، أرجوك دعني أرحل.

ضحك بصوت عالٍ ثم أردف:
- لقد دفعها زوجك الغبي من دون أن يطرح أي سؤال.

لم تستطع تصديق كلامه، فوضع يده على ذقنها وأكمل بسخرية:
- لقد أرسلتُ إليه إحدى السيدات، وأخبرته أنها تدين لك بهذه الصكوك، والمسكين صدقها ودفع كل المبالغ دون
تردد.

أحست سارة وكان صفة لظمت وجهها، فخاطبته منهاراً:
- والصور... الصور... أين هي؟ هل أخذت الثمن من دون أن تعطي المقابل؟ يا لك من خبيث!

ضحك بسخرية ثم قال:
- لا تقلقي يا حبيبتي، بعد أن أحصل عليكِ هذه الليلة، سنتوصلين بصورك الكاملة...

وقبل أن ينهي حديثه انقض عليها كالوحش، ومزق ثيابها بقوة. حاولت أن تقاومه، لكنه كان أقوى منها. ولولا
انفجار الباب واقتحام الشرطة للغرفة وبرفقتهم صديقتها كارلا، لنال من طهارتها.

ارتمت سارة باكية في أحضان كارلا، فطمأنتها الأخيرة بأنها لن تراه من هذه الليلة، وأخبرتها أنه متابع دولياً
بتهمة تبييض الأموال وتهريب المخدرات عبر القارات.

وقبل أن تأخذ الشرطة، ابتسمت له كارلا ساخرة:
- أنا وسارة نتمنى لك قضاء سنوات ممتعة في السجن.

وبنبرة ساخرة أجاب:

- وأنا أتمنى أن تنال الهدية التي تركتها لك مع زوجك إعجابك.

ما إن اختفى، حتى أردفت كارلا:

- هل أنت بخير يا حلوتي؟

لم تكذ تنهي كارلا حديثها حتى انهارت سارة على الأرض باكية. كان كابوسًا مخيفًا مرّت به في هذه الليلة.

:أحست كارلا بمشاعرها، فحاولت طمأنتها:

- لن يعود مجددًا، صدقيني، سيقبع في السجن ما تبقى له من حياته. أرجوك كفى بكاءً يا طفلي، أنسيت كم من "

ظروف أقسى من هذه مررنا بها، وكنا أقوى منها؟

وبشكل مفاجئ وجهت لها سارة الحديث بنبرة غير مصدقة

- وماذا لو عاد؟ ودمرنا بطريقة أو بأخرى؟

وبهدوء رفعت ذقن سارة بيدها نحوها، ثم نظرت إليها بعينين واثقتين وبنبرة صارمة أجابتها:

- لو عاد، سأقتله.

لم تستطع سارة أن تكبح ضحكتها، فهي لم تتخيل كارلا بتلك القامة النحيلة أن تهزم رجالًا بضخامة وقوة جون.

قرأت كارلا ما يدور في مخيلة صديقتها، فضحكت هي الأخرى، ثم أردفت قائلة:

- يبدو أنك لا تثقين بقدرات صديقتك، من أجلك يمكن أن أصبح أقوى نساء العالم.

في تلك الأثناء، نظرت سارة إلى ساعتها، فوجدتها تقارب الثانية عشرة ليلاً، فقررت قضاء تلك الليلة مع صديقتها

في الفندق الذي تقيم فيه، خاصة وأن الوقت صار متأخرًا للعودة إلى القصر.

في أثناء طريقهما إلى الفندق، سردت لها كارلا كيفية معرفتها بوجود هذا المجرم في الفندق، وأنها استعانت بمتحرٍ

خاص لمتابعة أخباره، إذ شكّت أن مجيئه لم يكن بمحض الصدفة، وأنه ربما يخطط لكارثة ما، فأبلغت الشرطة،

لتكتشف أن الإنترنت الدولي يبحث عنه. وبعد انتهاء العرض بحثت عنها بين الجماهير فلم تجدها، فشكت فيه

فورًا.

عانقت سارة صديقتها، وأردفت قائلة بنبرة هادئة:

- لا أدري ماذا كان سيحدث لي هذه الليلة لو لم تكوني صديقتي.

ضحكت كارلا، وهي تلطم وجه صديقتها بلطف ممزحة، ثم قالت:

- سأكون بجانبك دائماً أيتها الحمقاء، وإذا أوصدت الأبواب كلها أمامك، فالباب دائماً مفتوح لك.

استيقظت في وقت الظهر، فبحثت بعينيها عن صديقتها كارلا في السرير المجاور، فوجدتها قد اختفت. بصعوبة وقفت على قدميها متوجهة إلى الحمام لإعادة توازنها بعد المعركة التي واجهتها الليلة الماضية، والتي ما تزال آثارها واضحة على جسدها كله.

أنهت حمامها بسرعة، وارتدت روباً قطنياً خاصاً بالحمام من خزانة صديقتها، لتفاجأ بها أمامها مبتسمة وبين يديها صينية فطور متنوع، ثم انسحبت لتجري مكاملة دولية مهمة.

لم تمر لحظات على مغادرتها حتى سمعت دقات خفيفة على الباب، فظننت أن كارلا نسيت شيئاً وعادت. قامت سارة وفتحت الباب، فدهشت عند رؤية صلاح أمامها، بقميص أبيض مفتوح قليلاً وسروال عملي، وسترته بين يديه، يبدو أنه خرج للتو من اجتماع طويل ولم ينم للحظة.

كانت علامات الغضب بادية على وجهه. اقتحم الغرفة دون أن ينتظر الإذن، وابتسم بسخرية عند رؤية صينية الفطور، ثم قال:

- وتستمعين بفطورك وكأن شيئاً لم يحدث.

استغربت سارة أسلوبه وتغيره المفاجئ، فسألته بنبرة جادة:

- ماذا تعني؟ أنا لا أفهمك، هل حدث شيء مع العمدة عائشة؟

فجأة أخرج من جيب سرواله صفحة مطوية من جريدة ورماها نحوها قائلاً:

- ألم تكتف من الفضائح؟

كانت صورتان تُورخان لمعركة أمس: الأولى تجمعها بجون وهو يضع يده على كتفها بشكل مشبوه أثناء العرض، والثانية في غرفة خاصة عند وصول الشرطة، وتحتها عنوان: علاقة حب جمعتهما أم جريمة مكتملة الأركان؟

صُدمت سارة، وقالت بنبرة منكسرة:

- هذه الصور مزيفة، صدقني.

بعد سنة، أصبحت سارة أكثر هدوءًا وانزائًا في سلوكها ولباسها، وواصلت مسيرتها في التقرب إلى خالتها عبر المساجد والمجالس الإسلامية في لندن، ورغم عدم ارتدائها للحجاب، واطببت على صلاتها يوميًا. كما حققت حلمها مع صديقتها كارلا بتأسيس متجر للطور الشرقية الراقية في لندن، اشترته بمال ميراثها الشرعي الذي حوَّله محامي عائلة العاجي إلى حسابها.

ورغم محاولات المحامي لإقناعها بعدم بيع ممتلكاتها، رفضت، ولم يبق لها سوى نصيبها من القصر الذي لا يباع ولا يُشترى وفق وصية السيد الكبير.

كان المتجر واسعًا، في موقع مرموق، ينقسم إلى مختبر لصناعة العطور وقاعة عرض. ومع اقتراب ولادة كارلا، التي كانت في شهرها الخامس، حاولت سارة تسريع إطلاق منتجاتها.

لكن بعد الافتتاح، صُدمت بالإقبال الضعيف رغم العروض والتخفيضات، فضاعت أغلب أموال التسويق، وباتت على حافة الإفلاس بعد أربعة أشهر.

كانت كارلا سندها الوحيد رغم حملها، إلى أن جاء يوم ولادتها، فنقلتها سارة إلى المستشفى، وهناك أنجبت كارلا توأمًا أسمتهما هي وزوجها: سارة وكارلا.

وبعدها بدأت سارة تشعر بثقل المرحلة، خاصة مع ركود المتجر.

وفي أحد الأيام، بينما كانت منشغلة بترتيب متجرها- سمعت خطوات تقترب. رفعت رأسها لتتفاجأ بأكثر شخص لم تتوقع رؤيته: صلاح.

دخل بهدوء، وقال:

- وجدت إعلان بيع هذا المتجر، فجئت.

ابتسمت سارة بمرارة، وقالت:

- أتريده؟

لكن المفاجأة كانت في رده:

- بل أريد مساعدتك.

ومن هنا بدأ حوار جديد غير كل شيء...

كان كلامه منطقياً جداً، فهو يخاطبها الآن بصفته رجل أعمال ناجح في مجاله. وحتى تُشبع فضولها، استدرجته في الحديث متسائلة بنبرة بريئة وحائر - وللان، لا زلت أبحث عن ذلك الخلل، أم هل أنا مقابلة فاشلة؟

ما إن أنهت حديثها حتى ابتسم، ثم أردف موضحاً:

- لست فاشلة، بل اختيار الموقع كان غير موفق بناتاً. فتواجدك بين متاجر مرموقة يُعد ظلماً بحقك، كما أن التخفيضات التي قمت بها خلال الافتتاح أضرت بسمعة عطورك المبتكرة، إذ سيعتقد الكثير من زوارك أنها ذات جودة ضعيفة. وينقصك أيضاً ذلك العطر البراق"...

استمعت له بتمعن، ثم سألته بشكل مفاجئ:

- ولماذا تريد مساعدتي؟ وبهذا الوقت؟ ألسنت عارضة فاسدة؟ فما هي اللعبة التي تلعبها معي الآن؟ وماذا تريد مني؟

دنا منها أكثر، وأردف بنبرة متوسلة:

- أريدك أن تغفري لي، سأفعل أي شيء لأكفر عن كل كلمة جرحتك بها، وعن كل ألم سببته لك. لولا كارلا، ما كنت سأعرف الحقيقة الكاملة... لقد كان عليك أن تخبريني بأن ذلك الحقيير أراد أن يعتدي عليك.

نظرت إلى عينيه، فبدت صادقيتين، وبنبرة متألّمة أجابت:

- لقد حاولت، لكنك أهنتني وطردتني...

قاطعها قائلاً:

- كنت غيوراً وأعمى في تلك اللحظة... لقد حاولت الاتصال بك مرات عدة لأطلب الصفح، لكن الخط كان مقفلاً، وحتى السيد إبراهيم رفض مدي بأي معلومة تخصك... أرجوك... دعيني أساعدك هذه المرة فقط.

ابتسمت له سارة وأجابته بنبرة ساخرة:

- أهي وصية أخرى يتوقف تنفيذها على تقديم العون لي؟ أرجوك... كفى تلاعباً بي... لقد تعبت...

أوقفها بنبرة متوسلة:

- نعم، لكنها وصية قلبي.

أعدت تلك الكلمات حلوة الحياة إليها من جديد، فهي لم تنجح في نسيانه رغم الشهور التي مضت ب.

أرادت الإفصاح عن مشاعرها له، لكن لسانها خانها عن التعبير.

بدا الألم في عينيه، وهو يقول

- لن أجبرك على شيء. لكن، أرجوك دعيني أساعدك.

لم ترد، فانسحب، ليحافظ على ما تبقى له من كرامة، قبل ان تطأ قدمه خارج المتجر، صرخت به وهي مشوشة

الأفكار:

- ألم تطلقني؟

- لم أستطع.

وماذا عن غيئة؟ ألن تتزوجها؟

استدار نحوها ورد بنبرة مستغربة:

- هذا مستحيل. لم يجمعني بتلك المرأة سوى العمل. ظننت في يوم ما أنني أحببتها، إنها مجرد باحثة عن الثراء

السريع.

لحقت به، وبنبرة غير مصدقة سألته:

- وكيف تأكدت من مشاعرك هذه؟

وبجراحة غير معتادة أجاب:

- في أول لقاء لنا.

ابتسمت وعانقته بقوة، فسألها:

- لما لم تطلقني نفسك مني؟

وبخجل أضافت:

- لأنني أحبك.

فما كان منه إلا أن ضمها إليه بقوة، وهمس لها متعهداً إياها بحياة من النعيم، جعلها هذا العناق الدافئ تشعر بالأمان الذي كانت تبحث عنه دائماً. لقد كانت تظن أنها أسيرة لهذا الرجل ولهذا القصر، بل ولهذا الوطن، لكن رحيلها جعله يدرك أن الحياة دون هذه الأشياء قد تكون حياة بئيسة.

النهاية